



# التعساء

فديحة أرمياض

رواية

“إلى الذين عاشوا تحت سقفٍ منخفضٍ من الحلم...  
وابتلعوا الدمع لأن الصراخ ممنوع.”

**بقلم:**

**"أزلماض خديجة"**

....

لا تتخذوا بالماء، فقد يغرق.  
ولا تصدقوا الضوء، فقد يحرق.  
ولا تقفوا كثيرًا عند الأبواب المغلقة، فبعض الأبواب لا تُفتح  
لأنها تخفي خلفها شيئًا مات منذ زمن.

القلوب التي تصمت كثيرًا، ليست هادئة...  
إنها فقط فقدت آخر شهية للكلام.

إن نجاك قلبك من الليل الأول،  
فلن ينجو منك في الليالي التي تليه.

كان عليّ أن أقول هذا قبل أن يفوت الأوان...  
لكنني كنت مشغولًا بمحاولة التنفس تحت الركाम.

لم يكن في فمها صراخ، ولا في عينيها دموع.  
كان جسدها خفيفاً كأن العظام تبخرت، وكأنها تسقط...  
بيطء... نحو الأسفل، بلا قاع.

ثمة صوت طرقات...

أم أنه قلبها؟

ثمة ضوء خافت فوقها...

أم أنه مجرد وهم؟

يديها تبحثان عن شيء.

ليس للنجاة. بل للتأكد أنها ما زالت هنا.

لكن الأرض كانت باردة، غريبة، كأنها لم تطأها من قبل.

رائحة شيء محترق...

الدم؟

البيت؟

الزمن؟

هي لا تعرف. ولا تريد أن تعرف.

كل ما تعرفه...

أن الليل لم ينته.

وأن الصباح هذه المرة... تأخر كثيرًا.

## بداية .

كان الشتاء أبرد من السنوات السابقة، أو ربما كانت الذاكرة قد قررت أن تُجمّد تلك السنة بالذات لتبقى داخلها ثلجًا لا يذوب. كانت ستيلًا في التاسعة، تلبس حذاءً قديمًا بلا أربطة، تجرّه وهي تمشي في الممر الحجري الضيق الذي يفصل بين غرفة النوم والمطبخ.

يدها الصغيرة تقبض على حافة سترتها المهترئة، تغطي بها ذراعيها النحيفتين، وتحاول أن لا تصدر صوتًا.

من خلف الباب الخشبي نصف المخلوع، كانت تسمع صوت بكاء، بكاء ناعم، متقطع، جديد...

كان ذلك صوت "أنجيلا"، أختها الصغيرة، التي ولدت منذ ثلاثة أيام.

ستيلًا لم تفهم بعد معنى أن تكون أختًا. لم تشعر بالحب، ولا الحماس، ولا حتى الفضول.

كل ما شعرت به... هو الخوف.

في الداخل، كان والدها جالسًا على الأرض، ظهره مستند إلى الحائط، وجهه شاحب، ذقنه يغطيه لحية غير مرتبة، وعيناه مطفأتان.

كان ينظر نحو السرير الذي تتمدد عليه زوجته، الأم، التي كانت تصرخ منذ الفجر، وتسب وتلعن الأرض ومن عليها، ثم تصمت فجأة كأنها اختنقت.

الأم لم تبتسم يومًا، لم يعرف وجهها الابتسامة، حتى حين وُلدت أنجيلا، لم تقل كلمة واحدة، فقط طلبت الماء، ثم نامت.

ستيلا جلست في الزاوية، تضم رجليها لصدرها، تتأمل الطفلة الصغيرة التي تتحرك بلا حول، ملفوفة في قطعة قماش بيضاء تحوّلت إلى رمادية من البرد والرطوبة.

في اليوم الثالث، دخلت الجارات ليرين المولودة.

ضحكن، تمتت إحداهن:

"عيناها واسعتان جدًا... ستجلب الحظ السيئ."

ضحكت الثانية: "أمها لا تلد إلا حزنًا، وهذه ستكون الأكثر حزنًا بينهن."

ثم غادرن، بعد أن قدّمن خبزًا يابسًا وشورية لم يُعرف نوعها.

الأم لم تشكر. الأب لم يتكلم.

وستيلا كانت هناك، تراقب... وتحفظ كل شيء في صدرها.

في الأيام التالية، بدأ الأب يسعل كثيرًا. لم يذهب إلى الحقل، ولم يشرب الحليب.

كانت نظراته طويلة، متعبة، وكان عينيه تسيران في طريق لا عودة منه.

عند الفجر، كان يوقظ ستيلا بلطف، يربت على شعرها، يناولها كوب الماء، ثم يجلس معها للحظة.

كان يقول لها كلمات لا تفهمها، مثل:

"انتبهي لأختك، لا تتركها وحدها... أمك لا تعرف الرحمة."

ثم ينام طويلاً...  
وكانت الأم تبدأ يومها بالصراخ.

مرت أسابيع، صار البيت أكثر صمتاً.  
حتى أن أنجيلا، الرضيعة، توقفت عن البكاء، وكأنها فهمت أن  
لا فائدة منه.

ستيلا صارت تطعمها، تنظفها، وتغني لها بلحنٍ لا يعرف أحد  
من أين جاء، ربما كانت تسمعه في قلبها.

وفي ليلةٍ من ليالي الشتاء الطويلة، استيقظت ستيلا على صوت  
خافت.

كان صوت أمها تنادي أباه. ثم صمت. ثم صرخة مكتومة. ثم  
صوت الأقدام على الأرض.

في الصباح، لم يكن الأب هناك.  
كان ممدداً على السرير، مغطى حتى الرأس، لا يتحرك.

والأم تقف في المطبخ، تخط شبيهاً في الإناء، وجهها لا يحمل  
أي ملامح، ولا أي دمة.

قيل إن قلبه توقف.

قيل إنه كان مريضاً منذ زمن.

قيل إن زوجته كانت تضربه أحياناً.

لم يكن أحد يهتم.

كل ما اهتمت به ستيل، أن يد أبيها كانت باردة حين لمستها،  
وأن لا أحد قال لها ماذا سيحدث بعد ذلك.

كانت أنجيلا نائمة، وستيلا وحدها.

منذ ذلك اليوم، صار الشتاء جزءاً من قلبها.

برّد لا يغادر، مهما ارتفعت الشمس، مهما اقتربت النار، مهما  
غطتها الأغطية.

كانت في العاشرة فقط، لكنها كبرت فجأة.

لم يعد هناك من يربت على شعرها.

لم يعد أحد يناولها كوب الماء عند الفجر.

ولم يعد في البيت صوتٌ سوى الصراخ... والبكاء الصامت  
لطفلة لم تتعلم أن تبكي.

كان كل شيء في ذلك البيت قديمًا.

الأبواب تصدر صريرًا عند أقل حركة، النافذة تُفتح وتُغلق من  
تلقاء نفسها، الجدران مغطاة بشقوق خفيفة كأن البيت يئن  
بهدوء منذ رحيل الأب.

المائدة لم تكن تُفرش، بل تُلقى عليها الصحون كما تُلقى  
الأحمال.

الأم، في الخمسين، لم تكن تُعامل الزمن كعذر للتعب، بل  
كسلاح إضافي.

وجهها صار أكثر حدة، كلماتها أقل، لكن حين تتكلم... كان  
الصوت وحده كافيًا لجعل ستيلا ترتجف.

ستيلا كانت في الخامسة عشرة، طويلة نسبيًا، شاحبة اللون،  
تمشي على أطراف أصابعها داخل البيت، ترتب سريرها بلا  
صوت، وتتفادى النظر في عيني والدتها.

كان كل شيء فيها ساكنًا... عدا عينيها.

عيناها كانتا دائمًا تبحثان عن شيء: مكان آمن، كلمة دافئة،  
لمسة بشرية.

لكن لا شيء في ذلك البيت يُعطى مجانًا.

"لماذا تتأملين الحائط كالبلهاء؟ هل تنتظرين أن يطهو نفسه؟"

قالتها الأم، وهي تضع الإناء على النار،

لم تنتظر إجابة.

"هيا، اغسلي الصحون، ولا تتذمري من الماء البارد، الماء لا يقتل".

ثم أضافت:

"الكسل هو الذي يقتل... وقد قتلك منذ زمن، لكنك ما زلت تمشين كالشبح".

ستيلا ابتلعت الكلمات، كما تفعل كل يوم.

غسلت الصحون، يداها ترتجفان، كانت أصابعها متشققة، بعض الجروح لم تلتئم منذ شهر.

كانت تعرف أن الرد ممنوع، الصراخ جريمة، وحتى التنهيدة قد تُفهم كتحدي.

أنجيلا، ذات الخمس سنوات، كانت تلعب في الزاوية بدمية مهترئة فقدت إحدى عينيها.

كانت تقلد حوارًا سمعته بالأمس:

"لا تصرخي، سأقول للجيران أنك مجنونة مثل أمك!"  
ثم ضحكت بصوتٍ خافتٍ.

الأم التفتت فوراً، وجهها تجمّد، اقتربت ببطء، ثم صفعت  
الدمية من يد الطفلة.

"لا تكرري ما لا تفهمينه... ولا تقلدي الحمقى."  
أنجيلا لم تبك، فقط حدّقت في الأرض طويلاً.

كانت ستيلا ترى ذلك، وتشعر بأن كل صرخة تُكتم داخل  
أختها، تنمو داخلها هي.

في الخارج، لم يكن الوضع أفضل.  
الناس في القرية لا يضحكون، النساء يتهاوسن كثيراً، ويتحدثن  
بصوتٍ عالٍ أكثر مما ينبغي.  
كل بيتٍ هو سجن، وكل أمٍ هي سجانة، وكل بنت مشروع  
زواج... أو عبء.

"ستيلا؟! سمعتُ أن أمك بدأت تسأل عنكِ في السوق!"  
قالتها جارة بثوب داكن، ابتسمت كأنها تمزح، ثم همست:  
"رجل من البلدة المجاورة... أرمل، لكن ثري. تقول أمك إنه  
سيشتري لكِ قماشك بنفسه."  
ثم ضحكت، وغادرت.

ستيلا لم تفهم... أو فهمت، لكنها رفضت الاعتراف.  
حين عادت إلى البيت، وجدت الأم جالسة عند المائدة، تتناول  
الخبز اليابس مع اللبن.  
رفعت نظرها وقالت:  
"إن سألك أحدهم عن عمرك، قولي أربعة عشر. ولا ترفعي  
نظرك أبدًا حين يزورنا."

"من سيزورنا؟"

"لا تسألي. فقط نظفي البيت، وافركي أظافرك، وارتي شيئًا لا  
يجعلك تبدين كالميتة."

صمتت ستیلا.

فی الداخل، كانت تتقیأ نفسها.

کل ما فیها ینهار، لكنها لم تصرخ.

أنجیلا اقتربت منها لاحقاً، فی اللیل، همست:

"ستیلا، إن ذهبت... هل سآتی معك؟"

ستیلا ابتسمت، رغم أن دموعها كانت تحفر طریقها من

الداخل، وقالت:

"إن ذهبت... سأبقى هنا."

لكنها كانت تكذب.

هی تعرف أن الذهاب قادم.

تعرف أن أحدهم سيشتري صمتها، وخوفها، وملابسها  
الرخيصة.

تعرف أن أحدهم سيأخذها من هذا البيت، لا حبًا بها... بل لأن  
أمها ترى في الزواج صفقة، والفتاة بضاعة، والخوف ضمان.

وكل ما كانت تفعله...

هو الانتظار.

كان صباحًا رماديًا.

الهواء راكد، لا برد فيه ولا دفء، كأن الزمن توقف ليشاهد ما  
سيحدث.

ستيلا لم تتم الليلة السابقة. جلست قرب النافذة المكسورة، تنظر  
إلى لا شيء، ترتب في رأسها كلمات لم تجرؤ على قولها.

عند الظهيرة، جاء الرجل.

لم يطرق الباب، بل دفعه ببطء، كأنه داخل متجرًا لا بيتًا.

كان في الأربعين تقريبًا، وجهه مليء بالتجاعيد رغم أنه لا يبدو كبيرًا.

عينيه صغيرتان، باردتان، لا تحتويان على شيء.

كان يلبس عباءة ثقيلة بلون بني باهت، يده اليمنى مشوهة قليلاً، وكأنه تعرّض لحريق قديم.

ابتسم لأمها، ثم نظر إليها.

نظرة لا تخطئها أنثى.

نظرة رجل لا يرى امرأة، بل يرى "شيئاً" يمكن امتلاكه، يمكن طيّه، يمكن كسره دون أن يُكسر هو.

تجمّدت.

لم تتكلم.

الأم قالت بابتسامة مصطنعة: "هذه ستيتلا، هادئة، مطيعة... لا تتحدث كثيرًا".

قال الرجل:

"هذا أفضل، لا حاجة للكلام في البيت".

ضحك.

ثم خرجوا.

بقيت ستيتلا وحدها في الغرفة، تتنفس ببطء، كأن الرئتين تحولت إلى حجر.

حين عادت الأم، كانت ستيتلا واقفة في الممر، ووجهها شاحب، يداها ترتجفان.

قالت بهدوء مخيف: "لن أتزوجه."

رفعت الأم نظرها، مدهوشة.

"ما قلتيه؟"

"لن أتزوجه. لن أكون له. لن أذهب معه. لا يمكن. لا أريده."

تقدّمت الأم خطوتين، وقفت أمامها، نظرت مباشرة في عينيها.

"أنت... لا تريدين؟"

قالتها بسخرية.

"لا."

"ولمن أنتِ إذا؟ لنفسك؟ أي نفس؟ فتاة تعيش في بيتي، تأكل من طبخي، ترتدي مما أشتريه، وترفض ما أقرره؟"

ستيلا لم ترد.

لكن دموعها نزلت، صامتة.

"هل تتوهمين أنك شيء له حق؟ أنت لا شيء يا ستيلا. لا شيء."

اقتربت الأم أكثر، أمسكت وجهها بيدها بقسوة، قالت:  
"هذا الوجه، سيكسر إذا واصل الغرور. أنا صنعتك، وسأعيدك إلى التراب."

"أنا لا أحبه... هو ينظر إليّ وكأنني حيوان."

"وهل ظننت أنك أميرة؟ هو رجلٌ وافق بكِ رغم شحوبك، رغم أنك لا تعرفين كيف تطبخين، رغم أنك لا تجيدين حتى الابتسام!"

ثم صرخت.

"أنتِ عازٌّ في بيتٍ أصلاً ملوثٍ بالهزائم!"

صرخت ستيلا: "أنا لا أريد! لا أريد أن أكون له! لا أريد أن ألمسه، لا أريد أن أنظر في وجهه!"

ضربتها الأم.

ضربة على الوجه.

ثم الأخرى.

ثم سحبت شعرها إلى الأسفل، أسقطتها على الأرض.

"ستذهبين، ولن تقولي كلمة. وإن فتحتِ فمكِ، سأكسر أصابع  
أنجيلا واحدةً تلو الأخرى. هل فهمتِ؟"

صمت.

ستيلا بكت، لكن بكاءها لم يكن عادياً.

كان البكاء الذي يأتي بعد كسرٍ داخلي لا يُرْمَم.

بكت بصوتٍ مكتوم، وجهها على الأرض، يداها ترتجفان،  
جسدها يتقلص.

الأم خرجت من الغرفة، وهي تتمتم: "لا أحد يهتم إن كنت ترفضين."

هذا العالم لا يسمع البكاء، فقط يسمع المال."

وحدها ستبقي بقية هناك،

تتقياً نفسها، وتفكر:

"هل أنجيلاً... تستحق أن أقتل؟"

ثم غفت على الأرض، كمن أغمي عليه من الداخل.

صباح اليوم الرابع كان مختلفاً.

فيه صمتٌ أكبر من المعتاد، كأن البيت يحتبس أنفاسه قبل تنفيذ الإعدام.

الأم كانت تقف عند الموقد منذ الفجر، تُعد حساءً كثيفاً، وتقص  
الخبز ببطء،

تضعه في صحون صغيرة، وكأنها تُجهّز طقوساً لا تُفهم.  
ستيلاً جلست في ركن المطبخ، شعرها مبلل، وجهها شاحب،  
يذاها متجمدتان رغم النار.

"انهضي."

قالتها الأم دون أن تنظر إليها.

"البنات في عمرك يتمنين هذا اليوم.

واحدة مثلك؟ يجب أن تشكر السماء أن هناك من يريدك."

لم ترد.

أمسكتها الأم من ذراعها، وسحبتهما نحو الغرفة.

"ارتدي هذا."

كانت فستانًا أبيض، قديمًا، مخرّم الأطراف، لا يصلح لفرح ولا  
لجنازة.

لكنّه كان نظيفًا... وهذا وحده اعتُبر كافيًا.

"ضعي الكحل، لا تبدين مريضة أمام الناس.  
وابتسمي... لا نريد أن يُقال عنك مجنونة."

"أنا لا أريد هذا."

قالتها ستيللا، بصوتٍ خافت.

"لم أسألكِ. لم أطلب رأيكِ.

أنتِ ستتزوجين. رغبةٌ أم كرهاً، لا يهم."

وقفت ستيللا، اقتربت من المرأة التي أنجبتها، نظرت في  
عينيها،

وقالت بوجهٍ لا يحمل رجاءً:

"أنتِ تذبحيني."

ضحكت الأم، بسخرية مبللة بالحقد.

"لو كنتُ أريد ذبحك، لفعلت وأنا أبداً لك حفاضك.

لكنني أطعمك، وأزفك لرجلٍ سيؤمّنك... وهذا أكثر مما  
تستحقين."

دخلت النساء.

ضحكات مكسورة، كلمات ثقيلة.

"جميلة، رغم نحفها."

"خجولة، لكن هذا يُحبّه الرجال."

"رجلها كريم، سيشتري لها عباءة جديدة، ستحمد ربها عليه."

"اللحم إن لم يُؤكل في أوانه، يفسد."

ضحك.

ضحك من كل الزوايا، كأن الجميع يحتفل بموتها دون جنازة.

جلست ستيلا في الزاوية، أنجيلا إلى جانبها، تمسك طرف ثوبها.

"هل ستذهبين؟"

"لا أعرف."

"هل يمكنني أن آتي معك؟"

"لا".

صمتت الصغيرة.

ثم قالت:

"إن ذهبت... من سيحضنني عند النوم؟"

لم تجب ستيلا.

لم تستطع.

جاء الرجل.

نفسه.

نفس الابتسامة التي لا تصل إلى عينيه.

نفس النظرة التي لا ترى فيها نفسها.

جلس، ابتسم لأمها، ثم مَدَّ يده ليلمح الخاتم.

سحبوا ستيلا، جلسوها أمامه،

وهي لا تنظر، لا تتنفس، لا تشعر إلا بلمس الأرض تحت  
قدميها.

قالت إحدى النساء:

"انظري إليه، أليس وسيماً؟"

ضحكت امرأة ثانية:

"إن لم تعجبك النظرات، ستعجبك النقود."

لكنها لم تكن تسمع.

كل ما كانت تسمعه، هو نبضها،

يدقّ في رأسها، كأنه يصرخ: اهربي، اهربي، اهربي.

لكنها لم تهرب.

وقّعوا الاتفاق.

قالت الأم:

"بعد أسبوعين، سيتم الأمر.

سترحلين معه، وستبدئين حياتك الجديدة."

عند المساء، دخلت ستيلا غرفتها، جلست على الأرض،  
وضعت يديها على وجهها، وبكت.

لكن البكاء لم يكن كما السابق.

هذه المرة، لم يكن بكاء حزن... بل بكاء ندم على الصمت  
الطويل.

ثم دخلت الأم، وقفت فوقها.

"انتهى الدلال.

ما حدث اليوم... لا يُلغى."

ستيلا رفعت رأسها، قالت:

"سأكرهك للأبد."

فردت الأم، كأنها تلقت مجاملة:

"هذا لا يهم. طالما أنجبتك، وأخرجتك من بيتي، يمكنك

كراهيتي إلى الأبد."

ثم أضافت:

"لكن إن فكرت في الهروب، أو الرفض أمام الناس،

سأجعل الصغيرة تدفع الثمن.

وسأجعلها تكرهك أنتِ، لا أنا."

وخرجت.

وتركتها هناك...

في قاعها،

وحيدة،

تحت عباءة بيضاء،

تنتظر موعد تسليمها... كالذبيحة.

كانت الشمس قد طلعت منذ وقت طويل، لكنها لم تشرق.

الضوء في بيتهم لا يملأ شيئاً، بل يزيد من اتساخ الجدران،  
ويُعزّي البؤس في التفاصيل.

الملاعق الصدئة، الثوب المعلق منذ شهر، الكرسي المهترئ  
الذي لا يُجلس عليه أحد إلا إذا كان مجبراً.

ستيلا كانت تجلس عند الزاوية، شعرها متشابك، وجهها  
شاحب،

ترسم بأصبعها خطوطاً غير مفهومة على الغبار المتراكم فوق  
الأرض.

لم تكن تبكي، ولا حتى تتنفس بعمق، كانت فقط... تنتظر أن  
ينتهي اليوم دون أن تبدأ.

دخلت الأم المطبخ، لم تُلقِ التحية، ولم تسأل عن أحد.  
ألقت قطعة خبز على الطاولة، وقالت:  
"كلي، لا أريدك أن تذوي قبل الزواج."

لم تجب ستيلا.

اكتفت بالنظر نحو الفراغ.

اقتربت الأم منها، حدّقت بها كما تحديق ربة البيت في قطعة  
أثاث غير نافعة.

"متى تنوين أن تغسلي وجهك؟ ألا تعرفين أن الرجال يفرون  
من المرأة الكئيبة؟"

قالتها وهي تمسح يديها بالمريول.

"أنتِ لا تُطمنين. عيناكِ مليئتان بالحزن. وكأنكِ سُدُفنين لا  
تُزفّين."

ضحكت.

لكن ستيلا لم تضحك.

ظلت تحديق في يدها، في التشققات التي لا تشفى.

"هل سأذهب إليه حقًا؟"

سألته للمرة الأولى، بصوتٍ بالكاد خرج من فمها.

الأم استدارت ببطء، كأن السؤال أغضب الكون.

"سؤالك متأخر.

الاتفاق تم.

وأنتِ ليستِ لديكِ رفاهية الرفض.

"لكنكِ لا تعرفين من هو... ولا كيف ينظر إليّ."

"بل أعرف.

يكفي أنه رجل، ليس معاقًا، ولا فقيرًا.

ولن أكرر نفسي، ستبلا.

أنتِ ستتزوجينه، لأنكِ لن تجدي غيره."

"ومن قال إنني أريد أن أتزوج أصلاً؟"

جاءها الصوت هذه المرة واضحًا.

جرحًا مفتوحًا أمام أم لم تؤمن يومًا بالضمادات.

"ما تريدني لا يهم.

لو كل فتاة اتبعت رغبتها، لامتلأت الأزقة بالحكايات.

أنتِ بنتي، وقراري هو ما يُنفَّذ."

اقتربت منها، همست بصوتٍ قاسٍ:

"أنتِ تظنين نفسك شيئًا مهمًا؟

فتاة لا تطبخ، لا تغسل، لا تُجيد الحديث، تظن أن الرفض حق؟

كنت سأرميك في البئر يوم ولدتك لو كنت أعلم أنك ستصبحين

هكذا."

هزّت ستيلًا رأسها، دموعها لا تسقط...

لكن شيئًا في داخلها سقط ولم يُسمع له صوت.

خرجت الأم، وبدأت تنادي أنجيلا.

ستيلا نظرت إلى الصغيرة، التي كانت تلعب وحدها.

قالت لها بهمسٍ مرتجفٍ:

"أنجيلا ... هل تحبينني؟"

رفعت الصغيرة عينيها وابتسمت ابتسامة ساذجة، ثم قالت:

"أنت لي وحدي."

أدارت ستيلا وجهها للحائط، وبدأت تبكي.

لأنها تعرف ...

أنها لن تعود لها.

النهار كان طويلاً في ذلك اليوم.

السماء بلا غيوم، والشمس لا تبتسم، فقط تُسلط أشعتها على  
السقف المعدني للغرفة فتزيده حرًّا.

الأم خرجت إلى السوق، تحمل قفة كبيرة وخطوات أثقل من  
صبرها.

البيت خالٍ إلا من الصمت، وأنجيلا التي تجلس على الأرض  
وتلَوّن ورقة ممزقة، وستيلا التي تكنس الأرض ببطء، دون  
اهتمام بما تجمععه من غبار.

"ستيلا..."

رفعت ستيلا رأسها ببطء.

"مم؟"

"هل ستبقين هنا إلى الأبد؟"

أجابت بعد صمت:

"لا أحد يبقى في مكانه إلى الأبد يا أنجيلا."

"إذا... ستذهبين؟"

"لا أدري."

"لكن إن ذهبت... سأكون وحدي."

توقفت ستيلا عن الكنس.

جلست إلى جانب الصغيرة، تأملتها مليًا.

"أنجيلا، هل تحبينني فقط لأنني أختك؟ أم لأنني أكون لطيفة  
معك أحيانًا؟"

أنجيلا شبكت يديها خلف ظهرها، وهزت رأسها بتفكير طفلة  
جادة، ثم قالت:

"أنا أحبك لأنك لا تصرخين في وجهي."

ضحكت ستيليا بسخرية مريرة.

"هذا سبب عادل."

ثم مدت يدها وأمسكت خصلة من شعر الصغيرة، وقالت:

"أحيانًا أتمنى لو كنت مكانك."

"لماذا؟"

"لأنك صغيرة، ولا أحد يتوقع منك شيئًا.

أنا... يجب أن أكون كل شيء، وأنا لا أعرف كيف أكون أي شيء."

قالت أنجيلا بنبرة بسيطة:

"لكن أنا أيضاً لا أعرف أشياء كثيرة... لا أعرف كيف أربط شعري وحدي... ولا كيف أقرأ... ولا كيف أقول الكلام الصعب."

"هذا ليس عيباً فيك يا حبيبتى.

أنتِ ما زلتِ تتعلمين..."

ثم أضافت همساً:

"أما أنا... فالعالم لا يعطيني فرصة لأتعلّم. فقط يريدني أن أكون جاهزة."

وضعت أنجيلا رأسها على ركلة أختها، وتمتمت:

"عندما أكبر، هل سأصبح مثلك؟"

تجمّدت ستيل.

سؤال بسيط... لكنه جرحها.

"لا يا أنجيلا.

لن تصبني مثلي.

سأجعل حياتك مختلفة."

رفعت أنجيلا وجهها وسألت ببراعة:

"يعني... لن أضرب؟ ولن يصرخوا عليّ؟"

"لن أسمح بذلك."

"وسأذهب إلى المدرسة؟ وألبس فساتين جميلة؟"

"سأشتريها لك. بنفسك الصغيرة، ستختارين كل الألوان."

ثم صمتت ستيلا للحظة، ووضعت يدها على شعر الصغيرة،  
وتمتمت:

"لن أكون موجودة للأبد يا أنجيلا...  
لكنني أعدك...  
أن أجعل وجودي القصير ذا فائدة."

قالت أنجيلا:  
"أريدك أن تبقى.  
أنا أحبك."

"وأنا أيضًا...  
أحبك... أكثر مما يحتمل قلبي."

ثم أسندت ستيلا رأسها إلى الجدار، وأغمضت عينيها.

لأول مرة منذ مدة... شعرت أن قلبها ينبض بشيء يشبه  
الأمان.

ولأول مرة أيضاً... خافت من هذا الإحساس.

لأن في بيتٍ مثل هذا،

أي شيء دافئ...

يبدو كأنه لا يدوم.

لم تتم ستيلة تلك الليلة رغم كل التعب.

كانت تحرق في السقف، في الشرخ الدقيق الذي يشق الخشب  
كندبة قديمة،

تحاول عدّ ثواني الليل بين صوت وصوت، بين تنفس أنجيلا  
وشخير أمها.

وفي الثالثة فجراً، سمعته:

كحة صغيرة، مبحوحة،

ثم أنين.

جلست فوراً، نظرت نحو أنجيلا، فوجدت الصغيرة تتلوى في

فراشها،

يدها على بطنها، وجهها محموم، وشفاهها يابسة.

"أنجيلا؟"

همست ستيلا، ثم اقتربت، وضعت يدها على جبين الطفلة

فارتعدت.

"أنتِ تحترقين..."

لم تكن تملك دواءً، ولا ماءً بارداً، ولا حتى قطعة قماش نظيفة.

فقط قلبها الذي بدأ يخفق بقوة لم تعهدها.

سحبت البطانية، واحتضنت الصغيرة إلى صدرها،  
همست لها كما كانت تفعل الأم حين كانت تُحب — إن كانت  
قد أحبت يوماً:

"أنا معكِ، لا تخافي..."

في الصباح، كانت الأم قد عادت من المخبز،  
وضعت الخبز على الطاولة، ونادت:

"ستيلا، جهّزي الأكل."

خرجت ستيلا من الغرفة، وجهها باهت، عيناها منتفختان،  
وقالت بهدوء:

"أنجيلا مريضة."

ردّت الأم، دون أن ترفع نظرها:  
"دعها تنام. الأطفال دائماً يمرضون."

"إنها تحترق. وتئن منذ ساعات."

"هل ستبكين الآن؟"

ما بكِ؟ هذه حجة لتتهرّبي من عمالك؟"

"أنا لا أتهرّب! فقط... أنجيلا ليست بخير. يجب أن نأخذها  
للطبيب."

ضحكت الأم، ضحكة قصيرة، ثم قالت:

"الطبيب؟"

هل نحن من تلك العائلات التي تملك نقودًا لطبيب؟

دعيتها تتعرق، وتتحسن وحدها. أو لا... أنت من تحبين  
العناية؟ اهتمي بها أنت."

استدارت ستيلا، عادت إلى الغرفة،  
جلست إلى جانب أنجيلا، التي كانت تغفو وتستيقظ على صوت  
تنفسها المتقطع.

قالت الطفلة بصوتٍ خافت:

"ستيلا... لا أريد أن أموت."

ردت، وهي تمسك يدها الصغيرة:

"لا تموتي، أرجوك. لا تفعلين بي هذا... لا تفعلينه."

"أنا تعبانة. جسدي يحترق. هل أنا سأرحل؟"

"لا، لن ترحلي. ليس الآن، ليس وأنا هنا."

ثم أضافت، والدموع تبلل خديها:

"لا أحد يرحل قبلي.

أنا من يجب أن يختفي أولاً.

أنت... أنت ما زلتِ وردة صغيرة."

ابتسمت أنجيلا رغم أوجاعها،

وهمست:

"إن اختفيت... سأزرع نفسي في مكانك.

لكي أراكِ تنبتين من جديد."

انهارت ستيل بالبكاء.

لأنها تعرف أن الحياة هنا لا تسمح لأحد بأن يُزهر.

في الليل، جلست ستيلا قرب النافذة،

أمسكت دفترها، وكتبت:

"ربما لا أخاف من الرحيل، بل أخاف من ترك أحد خلفي لا يعرف كيف يعيش.

أنا لست أختًا، ولا أمًّا، ولا شيء.

أنا بقايا بنت... تحمل قلبًا ليس لها، وتحمي حياة لا تملك  
الوسيلة لحمايتها."

كان النهار التالي أشد حرارة.

أنجيلا لم تستطع النهوض من السرير، كانت تهذي بكلمات  
مبعثرة، وتفتح عينيها نصف فتحة، كأنها ترى شيئًا لا وجود  
له.

ستيلا كانت تجلس إلى جانبها، تمسح جبينها كل ساعة بقطعة قماش مبللة، تغير ملابسها، تحاول أن تُطعمها شيئاً... لكنها لا تبلع.

في الجهة الأخرى من البيت، كانت الأم تُفرز حبوب العدس وتغني بصوتٍ منخفض... نشاز، غليظ، وكأنها في عالم مواز لا تصل إليه أصوات الألم.

"أمي، إنها تزداد سوءاً، لم تعد تردّ عليّ."

قالتها ستيلا، وهي تقف في باب المطبخ، تتوسّل بعينيها لا بكلماتها.

"هل ما زلنا في هذا الموضوع؟"

ردّت الأم، دون أن ترفع رأسها.

"لقد أصبحت نحيلة جدًا. لا تأكل، لا تشرب. إنها تحترق من  
الداخل..."

قاطعتها الأم:

"كلنا نحترق يا ستيل. هذا بيت لا يملك نوافذ ولا مظفأة."

ثم تابعت فرز الحبوب.

"أرجوك... نأخذها إلى أحد، نطلب دواء، نبيع شيئًا، أي  
شيء."

ضحكت.

ضحكت وكأنها تستمع لنكتة سمعتها آلاف المرات.

"تبيعين ماذا؟ نفسك؟ لا أحد سيشتريك."

ولا تظني للحظة أن هذه الطفلة أهم من الخبز على مائدتنا.  
إن متت... فذلك لأن الله أراد. وليس أنا."

أجفلت ستيتلا.

لم تكن تتوقع أن تسمع هذه الجملة... هكذا، بهذه البساطة.

قالت بصوتٍ خافت:

"أنتِ مريضة.

هذا ليس قسوة فقط، إنه جنون."

توقفت الأم، رفعت رأسها ببطء، نظرت في عيني ستيتلا نظرة  
طويلة.

"الجنون أن أحملك وأطعمك، وأحمل ظهري وجعكما، ثم  
أسمى مريضة.

الجنون أن أتعب نفسي من أجلكما، فتقابليني بالوقاحة.  
لا ترفعي صوتك عليّ، يا ابنة أبيك الفاشل."

اقتربت ستيلا خطوة:

"لم تحبينا يوماً.

لم تكوني أمًا، فقط جدارًا يسد الحياة."

"ولم تكوني ابنة، فقط عارًا يتحرك."

ابتسمت ستيلا، ابتسامة يائسة، وقالت:

"لو كنتُ أملك القوة... لكنت أنقذت أنجيلًا منك."

فردت الأم، بنبرة مشبعة بالسّم:

"أنقذي نفسك أولاً .

فالطفلة التي ستحملينها بعد أسبوعين، ستحتاج أمًا لا تبكي في  
الزوايا".

تجمّدت ستيل .

جملة واحدة أعادتها إلى واقعها الكامل:

زواجها اقترب، اختطافها من نفسها صار حتميًا،  
وأنجيلا، الوحيدة التي تحبها، تموت ببطء أمامها... بينما تُجبر  
على حمل حياة أخرى في جسدها المكسور.

في الليل، نامت ستيل بجانب أختها،

وضعت رأسها قرب وجهها الصغير، وبدأت تحكي لها قصصًا  
مختلفة:

عن زهرة تفتحت في الصقيع،  
وعن قطار يأخذ الأطفال إلى مدينة بلا صراخ،  
وعن أمٍ طيّبة تُخبّي أولادها من الوحوش...

لكنها لم تقل...

أن الوحش لم يكن في الخارج.

بل كان يُعدّ العشاء على بُعد مترين منهما.

في آخر السطر، كتبت ستيلا في دفترها:

أنا لست بخير.

لم أكن يوماً بخير.

لكن هذه المرة... لن أنسى.

حتى إن اختفيت، حتى إن مُت،

سأتذكر كل ما فعلته بي."

مرت ثلاثة أيام لم تغادر فيها ستيلاً الغرفة.  
جلست قرب أنجيلا المريضة، تراقب تنفّسها كمن يراقب شجرة  
على وشك أن تسقط.  
الطفلة لم تعد تتحدث، فقط تصدر أنيناً خافتاً كل بضع ساعات،  
وتفتح عينيها دون أن ترى.

وفي اليوم الرابع، دخلت الأم الغرفة كأنها لم تر شيئاً.  
وضعت على الكرسي صندوقاً صغيراً، بدا كأنه كان مخبأ منذ  
زمن، وقالت:

"ارتديه، جاؤوا اليوم لتحديد يوم الزفاف."

تجمدت ستيلاً في مكانها.  
عيناها على الصندوق، لكن عقلها على الصغيرة الممددة  
بجانبيها.

كل شيء بداخلها صرخ:

"الآن؟ أنجيلا تحتضر... وأنتِ تلبسيني الفستان؟"

مدّت يدها نحو القماش، لم تكن يدها ترتجف...

بل قلبها.

فتحت الصندوق.

كان فستانًا قديمًا، أبيض مائل للصفرة، من النوع الذي يبدو  
ميثًا حتى قبل أن يُرتدى.

كانت أكمامه طويلة، كأنها تخفي شيئًا، وتنورته واسعة  
كتوابيت العرائس في الحكايات المخيفة.

مدّت الأم يدها وسحبت الفستان بقسوة.

"قيسي المقاس، لا نملك الوقت لنفصل غيره."

وقفت ستيلاً، رفعت عينيها نحو وجه أمها، لم تقل شيئاً.  
وفي داخلها، صمتٌ عظيمٌ بدأ يتشقق.

لبست الفستان.

كان باردًا، خشناً، لا يشبه الزفاف، لا يشبه شيئاً سوى الدفن.

في المرأة المكسورة، لم تر فتاة.  
رأت ظلًا، ملامحه معلقة بين الطفولة والإعدام.

دخلت الأم، نظرت إليها بعين ناقدة، ثم قالت:

"تبدين مقبولة."

الرجل لا يبحث عن جمالك، بل عن مطيئة تطيع."

ثم خرجت.

جلست ستيلا أمام المرأة، مدت يدها ولمست خدّها، كان باهتًا،  
بلا حياة.

بدأت تهمس لنفسها:

< "أنا لست هنا..."

أنا فقط... أؤدي دورًا."

في الغرفة المجاورة، أنجيلا بدأت تهذي باسمها.

ركضت إليها، أمسكت يدها الصغيرة،

قالت الطفلة بصوت بالكاد يُسمع:

"ستيلا... لا تذهبي، أرجوك."

انكسرت ستيلا.

انكسر شيء داخلها كأن أحدًا كسر ضلعًا لم يُخلق للعظام.

احتضنت أختها بشدة، همست:

"لن أذهب... لن أذهب، أنجيلا، لن أتركك وحدك، أقسم لك."

لكنها كانت تكذب.

كانت تعرف.

سُئِلَ الرجل الذي لا تعرفه،

الذي لم تره إلا مرة واحدة من نافذة الجيران،

حين دخل البيت واضعًا يده على سُرّته، منتفخ البطن، ضخماً،  
بعينين لا تبتسمان.

رأته يومها، كان ينظر نحو الباب، لا كمن ينتظر فتاة... بل  
كمن يشتري شيء.

وفي عقلها، تردد شيء لا اسم له، لا قرار له، فقط الهاجس:

"لو رحلتُ، ستموت أنجيلا وحدها.

ولو بقيتُ... سيموت شيء فيّ لا يولد مرتين."

في تلك الليلة، لم تنم.

وضعت رأسها على الأرض، لا على المخدة.

أرادت أن تشعر بالبرد، بالقسوة، بشيء يُعيدها إلى الواقع.

أرادت أن تفهم: من هي؟ ولماذا كل الطرق مغلقة؟

فجأة، تذكرت شيئاً...

"الرجل غني."

قالتها بصوتٍ مرتجفٍ.

ثم صمتت.

لم تكن تُفكر في الهرب.

لكن عقلها، من خلف ظهرها، بدأ يخطّ شيئاً آخر.

في الصباح، استيقظت ستيلا على ضوءٍ ناعمٍ لا يشبه أي  
صباح سابق.

كانت تنظر إلى السقف، إلى الشقوق التي كانت تُخيفها،  
لكنها الآن... بدت كأنها رسومات على حائطٍ قديم، لا أكثر.

جلست في سريرها، نظرت إلى أنجيلا التي تنام بعمق،

وهمست:

"سيكون لنا بيت دافئ، أنجيلا... سأخذك إليه يومًا، وأصنع لك نافذة تطل على شجرة لوز."

لم يكن ذلك وعدًا... بل محاولة للبقاء حيّة.

كانت قد أقنعت نفسها اللبلة الماضية أن الحياة لا تنتهي في بيت الأم.

ربما هناك، في الجهة الأخرى، في بيت الرجل الذي لا تعرفه...

سيكون هناك متسعٌ لحلمٍ صغير.

لبست فستانها السماوي...

نعم، السماوي، لا الأبيض.

لون البحر حين يكون هادئًا، لون السماء حين تمحو الغيم.

كانت أول فتاة في القرية لا ترتدي الأبيض في زفافها،

لا لأنها اختارت أن تتمرد،

بل لأنها لم تكن تملك الأبيض...

ولأن قلبها لم يحتمل أن يتزين بلون البراءة التي سُلبت منها.

مشطت شعرها وحدها.

وضعت خصلة خلف أذنها، وأخرى تركتها تسقط على وجهها،

كأنها تُخفي بها شيئًا.

ثم نظرت في المرآة...

ورأت وجهًا لم تره من قبل.

بشرتها لم تكن شاحبة كعادتها،

وعيناها، رغم التعب، فيهما لمعة... لمعة لا تُكذب، بل تُراوغ

الألم.

دخلت الأم لتراها واقفة في وسط الغرفة،  
ترتدي الفستان، وتبتسم لأنجيلا التي تجلس على الكرسي،  
تضحك وتصفق.

تجمّدت الأم.

لم تقل شيئاً.

لأنها للمرّة الأولى... رأت ستيتلا، لا كابنتها، بل كأنثى.  
امرأة شابة مشرقة، نظيفة الحضور، تهزم القبح بالنعومة،  
والقسوة بالسكينة.

كانت أنجيلا تدور حول أختها، تضحك كطفلة في مهرجان.

"أنتِ ملاك، ستيتلا..."

هل أنتِ حقًا أختي؟"

ضحكت ستيلًا من قلبها.

ضحكت لأول مرة بصوت مسموع، حقيقي، بلا ارتجاف.

ثم مدّت يدها لأنجيلا وقالت:

"تعالى نرقص..."

قبل أن يأخذوني."

رقصتا في وسط البيت الصغير،

على أرضٍ خالية من الزينة، لكن ممثلة بالضوء.

لم يكن هناك موسيقى،

لكن أنجيلا غنّت أغنية صغيرة من وحيها:

"ستيلا ستطير،  
فوق بيتٍ فيه شمسٌ كبيرة،  
وبيتٍ فيه ورود،  
وسماء زرقاء لا تنام."

في الخارج، بدأت نساء الحي يتجمّعن.  
الزينة خجولة، ضحكاتهن متوترة، كأن الجميع لا يعرف كيف  
يحتفل بزفاف فتاة لم ترها القرية يوماً تبتسم.

حين خرجت ستيلا من بيتها، وقفت الجارات مذهولات.

أين كانت هذه الطفلة؟  
منذ متى كانت تملك هذا الجمال؟  
منذ متى كانت قادرة على أن تلمع بهذا الشكل؟

صوت الهمسات تداخل،  
الكل يقول في سرّه: "ما أجملها... لكنها تبدو كأنها تودّع".

ثم جاء الرجل.

في عربة عتيقة، مطلية بلمعة خفيفة،  
وقف ينظر نحو ستيل، دون تعبير.

لكنها لم تنظر إليه.  
نظرت إلى السماء.

ثم استدارت، ضمت أنجيلا بقوة، وقالت:

"سأجعل هذا البيت الأخير الذي أبتسم فيه... بيتًا تتذكرينه."

انتهى الاحتفال... لكن البهجة بقيت عالقة.  
كأن الزمن توقف عند ضحكة ستيل،  
وكأن كل ما سيأتي بعد هذا اليوم...  
لن يكون حياة، بل اختبارًا لطاقة الحلم في وجه كل شيء.  
ما إن خرجت ستيل من العربة حتى سقط أول شيء منها...  
ضحكتها.

كانت لا تزال تمسك بطرف فستانها السماوي،  
تحاول أن تُوازن خطواتها، لكن الأرض بدت مختلفة،  
ثقيلة، صلبة، لا تنتمي لتلك التي تركتها خلفها.  
وقف الرجل أمام البيت — إن كان يمكن تسميته بيتًا —  
بابٌ خشبيّ بلون الطين اليابس،  
ونوافذ مغلقة كجفون رجل نائم في كوابيسه.

قال دون أن يلتفت نحوها:

"ادخلي."

لم يكن صوته قاسياً فقط،  
بل خالٍ من أي طيف بشري.

تقدّمت ستيلا.

وفي أول خطوة داخل العتبة،  
كأنها عبرت إلى بعدٍ آخر،  
كأن الهواء تغيّر...  
وأحلامها كلها انطفأت كشمعة دهستها قدم.

البيت مظلم.

لا ضوء، لا نوافذ مفتوحة،  
ولا رائحة طعام، بل رائحة عرقٍ قديم، وبؤسٍ مقيم.

أغلق الرجل الباب خلفها.  
صوته حين انغلق جعل قلبها يقف لحظة.

قال:

"قوانين هذا البيت بسيطة.

لا ترفعي صوتك.

لا تخرجي دون إذني.

لا تسألي.

ولا تنامي قبل أن تفرغي كل ما عليك."

نظرت إليه.

أرادت أن تسأله أين الغرفة؟ أين المطبخ؟

لكنها لم تتكلم.

رأت عينيه.

لم تكن عيان، بل نافذتين على غابة سوداء.

نظرة واحدة منه، جعلتها تتراجع خطوة دون أن تشعر.

كانت يده تمسك عصا قصيرة، كأنها جزء من ملابسه،

يده الأخرى مشدودة، معروقة،

تخلو من أي رجفة... يد تعودت على الضرب، لا العطاء.

"لن أنفق مالا على من لا تُجيد الطبخ.

ولا أرغب بأن أرى وجهك عابسا.

كوني هادئة. كوني مطيعة."

قالها وهو يُلقي كيسا على الطاولة.

كيس بداخله لوازم التنظيف،

كأنه يُعطيها أدوات السجن الذي ستقضي فيه أيامها.

جلست ستيلا على الأرض دون أن تُدرك.  
يديها ترتجف، نظراتها تائهة.

لم يكن هناك فستان، ولا زهور، ولا سماء.  
بل سقف متشقق، وجدران رمادية، وزوج لا يرى فيها سوى  
ملكية.

في الليل، دخل الغرفة فجأة.  
وجدها جالسة قرب الحائط، تضم ركبتيها.

قال بصوتٍ مُتعبٍ من الهدوء:

"هل تظنين أنكِ ضيفة هنا؟  
إن لم تبدأي بتنظيف المكان غداً... سأجعلك تنامين في  
الخارج."

ثم خرج، وأغلق الباب خلفه بقوة.

حينها فقط، تساقطت الدموع.

لا بكاء.

دموع فقط... باردة، صامتة، تشبه رعب الأطفال الذين لا يعرفون لماذا يُعاقبون.

في الداخل، كانت ستبلا تهمس:

"كنت أظن أنني سأبدأ حياة جديدة..."

لم أعلم أنها كانت النهاية."

ثم كتبت في رأسها، لأنها لم تملك دفترًا:

"كنت أعتقد أن بيت الأم هو الأسوأ.  
لكنني اكتشفت أن هناك منازل، تُبنى من العزلة والخوف...  
فيها تتعلم أن تصمت حتى لا تُضرب،  
أن تبتسم حتى لا تُذل،  
أن تموت ببطء وأنت واقفة.  
وأنا... فتاة في الخامسة عشر فقط."

لم تكن تدري ما الوقت. لا صباح يعلن عن يوم جديد، ولا  
ضوء يسرّب الأمل. فقط سقف خشبيّ باهت، تتدلى منه شبكة  
عنكبوت لم تكتمل بعد.

استيقظت ستيلا على صوت صرير الباب وهو يُغلق بعنف. لم  
يكن نداءً، لم يكن أمراً، بل مجرد إعلان... أن الحياة هنا تُدار  
بالصمت، وتُنقذ بالقوة.

جلست في سريرها الجديد. لم يكن سريرًا، بل لوحًا خشبيًا عارٍ  
سوى من بطانية خشنة تلسع الجسد أكثر مما تدفئه. تمددت  
قليلاً، ثم تذكّرت: لا يجب. لا يُسمح. لا وقت للراحة.

خرجت من الغرفة تبحث عن المطبخ. وجدت حجرة صغيرة،  
تنبعث منها رائحة دخان قديم، فيها موقد متفحم، وعدد من  
الصحون المكسورة، وكأن أحدهم حاول أن يعيش هنا... ثم  
فشل.

جاء صوته من الخلف، حادًا، دون أن يرفع نبرته: "أين  
فطورك؟"

تجمّدت. لم تعرف أن عليه أن يُعدّ الفطور. لم تعرف حتى  
كيف يُطهى الخبز أو يُحضر الحليب. في بيت والدتها، كانت  
ممنوعة من لمس المطبخ. ممنوعة من الحرق، من النار، من  
الماء المغلي.

همست، كمن يعترف بجريمة: "لا... لا أعرف كيف."

تقدّم خطوة. لم يصرخ. لم يشتم. فقط أمسك بمعصمها، بقوة باردة، وقال ببطء: "من اليوم، ستعرفين. وإن لم تتعلمي، ستتعلمين بطريقة أخرى."

شعرت كأن ذاكرتها خذلتها وأعادتها سنيًا للوراء. يد والدتها، نفس اليد، نفس القبضة. كأن النسخة الذكورية منها استُنسخت فقط لتُكمل ما بدأتها.

مرّ اليوم بصمت. قضته تمسح الغبار عن الطاومات، وتجمع الشوائب من الزوايا. كل شيء كان متسخًا، كأن البيت رفض أن يُنظف. كل شيء هنا فيه طيف امرأة سبقتها. ربما أكثر من واحدة.

في المساء، سمعته يعود. خطواته على الأرض كانت تنذر. لم يسلم. لم يسأل. فقط قال وهو يخلع معطفه: "غداً تنظفين الحديقة. وإن وجدتكِ نائمة، لن أنام تلك الليلة."

ابتلعت ريقها ولم ترد. خافت من اللغة، من الصوت، من ظلال  
جسده على الجدران.

ذهبت لغرفتها. لم تأكل. لم تشرب. كتبت بأظافرها على الحائط  
جملة واحدة:

"أنجيلا... لا تقلقي. أنا قوية، فقط وحدي جدًا."

في الصباح التالي، استيقظت باكراً. نظرت إلى المرأة. عيناها  
كانتا أكبر من أمس. ليس بسبب النوم، بل لأن الصدمة بدأت  
تُكشَف تدريجياً.

اليوم التالي حمل ذات التعليمات، والابتسامات الغائبة،  
والواجبات التي تُفرض كالسلاسل. عرفت أن الهاتف مقطوع.  
لا زيارات. لا خروج. لا بريد.

وأن العالم في الخارج لم يعد يعرف بوجودها.

أدركت بعد ثلاثة أيام أن لا أحد سيطرق الباب من أجلها.  
لا أم، لا أخت، لا أحد.

وأن القمص التي كانت تحيكها عن الحب، عن بداية جديدة،  
عن فستانها السماوي... كانت مجرد وهم صُنِعَ لِيُخَدِّرَها حتى  
تصل إلى قفصها الجديد.

وحدها، تمامًا،

وبدأت تصدق ، لأول مرة أن هذا هو العالم الحقيقي.  
وأن الألم... ليس مؤقتًا.

لم تمر سوى أيام قليلة حتى بدأت الأصوات تتغير.

صوت خطواته صار يضرب الأرض أكثر. نظرت لا تذهب  
بعيدًا عن جسدها، لكنها لا تحمل شيئًا من رغبة، بل كراهية،  
كأنها شيء وُضِعَ له في حياته دون أن يُستشار.

ذات صباح، تأخرت قليلاً في ترتيب الحديقة. كان الجو مشوباً بالريح، وأصابعها الصغيرة لا تقوى على الإمساك بالمجرفة القديمة. وحين دخلت إلى البيت، وجدته ينتظر.

لم يكن غاضباً.  
كان صامتاً... وصمته كان أفظع.

"قلت لكِ أمس ألا تتأخري."

أرادت أن تعتذر، أن تشرح، لكن الكلمات عالقة. جفاف في الحلق. نظرة واحدة منه أسكتت حتى الهواء.

تقدّم منها.

رفع يده.

ولأول مرة، شعرت أن الصفحة لا تصدر صوتاً خارجها فقط... بل داخلياً، في عظامها.

تراجعت خطوة للخلف، اصطدم ظهرها بالحائط، حاولت أن تتكلم، لكنه أمسك بذراعها بقوة، وجرّها إلى الغرفة. رماها على الأرض.

"انظري إليّ جيّدًا، ولا ترفعي صوتك معي مرة أخرى.  
من الآن فصاعدًا، أنتِ زوجتي. وهذا البيت ليس سجنًا، هو بيت الطاعة. افهمتي؟"

ابتلعت دموعها. لم تستطع أن تبكي، لأن البكاء سيزيد من الضرب. كانت تعرف هذه القاعدة جيّدًا. تعلمتها من والدتها، وأتقنها هذا الرجل ببراعة.

مرّت الليلة كأنها دهر. لم تتم. لم تنهض. ظلت في مكانها، تحدّق في الظلام. تنفّست ببطء، كأنها لا تريد أن يسمعها أحد.

في صباح اليوم التالي، تجرّأت.

أمسكت الهاتف الأرضي، وانتظرت أن يُرفع الخط.  
سمعت صوتًا... صوت والدتها.

تنهّدت، كانت على وشك أن تبكي من الراحة. قالت بصوت  
مرتجف:

"أمي... أنا... ضربني... بالأمس، ولم أتناول شيئًا، ولم أستطع  
أن.."

قاطعتها بحدة

"كفى"

أنتِ من اختار المصير الذي بين يديكِ.

ظننتُ أنكِ أخيرًا ستصبحين امرأة نافعة، لكن يبدو أنكِ ما زلتِ  
بجاءة ضعيفة!

أغلقي الخط ولا تتصلي مجددًا إلا إن كنتِ حاملاً. ربما حينها  
يكون بكِ فائدة."

بُهِتت.

بقي الهاتف بيدها، لكن الصوت انقطع.

شيء في داخلها كُسر كليًا.

إن كان فيها ما تبقى من طهارة تجاه أمها... فقد تلاشى.

توجّهت نحو الغرفة، جلست على الأرض، وضعت يديها على أذنيها، وأغلقت عينيها. لا شيء يمكنه أن يمرّ.

مرت لحظات... ثم انفجرت في بكاء صامت، بكاء يشبه نزيقًا داخليًا لا يُرى.

في تلك اللحظة، أدركت أن لا مكان لها، لا بيت، لا ظهر، لا وطن.

فقط جسد هش، وصوت داخلي يهمس كل ليلة:

أنتِ وحدكِ ... إلى الأبد.

كانت تقف في المطبخ، تحاول أن تفهم ترتيب الأواني كما فعلت الليلة الماضية، يدها اليمنى تمسك بملعقة خشبية، واليسرى ترتجف قليلاً كلما اقترب منها صوت من خلف الباب.

جاء صوته هادئاً، لكنه يحمل نغمة لا تطمئن:

"اليوم... ستزورنا العائلة."

تجمّدت. قلبها انكمش كأن أحدهم قبض عليه بقبضة من جليد. هي لا تعرف أحداً. ولا تملك شيئاً لتقوله.

مرّت ساعة، وربما أكثر، حتى سمعت الأصوات.

ضحكات نسائية عالية، خطوات كعب تخترق البلاط، وكأن كل امرأة جاءت تحمل سيفاً خفياً.

كنّ ثلاث نساء، كل واحدة أشدّ من الأخرى ملامحًا ولسانًا.  
الأولى كانت ممثلة، ترتدي وشاحًا فاقعًا وتمد يدها في كل  
اتجاه. الثانية نحيفة ذات فم لا يغلق، تتحدث حتى وهي تبتلع  
ريقها. والثالثة... تشبه زوجها، نفس النظرة، نفس التحديق  
العدواني.

عندما رأين ستيلًا لأول مرة، لم يتسمن.

قالت الأولى وهي تدور حولها كصيّادة:

"هذه هي؟ هذه الهزيلة التي اختارها؟ لا يبدو عليها أنها قادرة  
على إنجاب قط، ناهيك عن ولد."

ضحكت الثانية وهي تميل على الطاولة:

"انظري إلى يديها، صغيرة جدًا، كيف ستحمل طبقًا دون أن  
تكسره؟"

أما الثالثة، فقد اقتربت أكثر، نظرت إلى وجهها نظرة فاحصة،  
ثم تمتعت كأنها تُلقي حكمًا قديمًا:

"عيناها كبيرتان جدًا... ليستا لفتاة ذكية. الطيبون دائمًا سُذج."

ستيلا... كانت واقفة بينهن، تُخفض بصرها، وتبتسم بخفة،  
خائفة من أن تُفهم ابتسامتها استهزاءً، أو غرورًا.

حاولت أن تمشي بخفة في المطبخ، خطواتها تشبه ظلها:  
صامتة، رقيقة، مترددة.

وهي تقطع الخبز، ارتعشت السكين بيدها.

قالت إحدى النساء:

"لا بأس، دعيها تطبخ، فربما سيحملها قريبًا ونحتاجها أن  
تعرف كيف تُرضع أيضًا."

ضحكت البقية.

نظرت ستيلا إلى زوجها، عيناها تتوسل شيئاً... أي شيء.  
لكنه كان ينظر نحوها، بعينين هادئتين، مستمتعاً بخضوعها،  
بتلك الرمشات المربكة، بتلك الأكتاف الصغيرة المنخفضة كلما  
قيل عنها شيء جديد.

لم يقل كلمة. لم يدافع. لم ينهرهن.  
بل... جلس. وأكل.

وسمعه إحداهن يهمس:

"إنها تربية قاسية، لكن الفتاة تعلّمت بسرعة."

قالت الأخرى:

"لا تنسَ أنهن يُكسرن مرةً واحدة فقط، ثم يصبحن كالعجين في  
يد الرجل."

نزلت الجملة الأخيرة على جسدها كصفعة.

لكنها لم ترد.

فقط حملت كوب الماء بصمت، ووضعتَه أمام إحداهن،  
بانحناءة طفيفة.

وابتسمت.

ابتسامة لا تُفهم، كأنها تقول:

"أنا ما زلت هنا... رغم كل شيء."

لكنها، في داخلها، كانت تبكي.

لا أحد سمعها.

ولأنها لا تعرف كيف تبكي بصوت...

بقي الألم في الداخل، يتغذى على كل كلمة، كل ضحكة، كل  
عين لم تُنصفها.

هدأ البيت.

غادرت النساء بأصواتهن العالية، وهمساتهن الساخرة،  
وعطورهن الثقيلة التي بقيت عالقة في الهواء كالغبار.

رتبت ستيلا الوسائد. جمعت الصحون بصمت، وضعت بقايا  
الشاي في وعاء نحاسي قديم، ثم غسلت الأكواب ببطء، كأنها  
تمسح أثر ما قيل، لا بقايا الشاي فقط.

حين عادت إلى المطبخ، أخرجت علبة صغيرة تحتوي على ما  
كانت تخبئه منذ الصباح:

كعكٌ صغير زينته بالسكر وبعض الفستق.

بسكويات وضعته في طبق وردي قديم.

وكوب شاي... أعدته بهدوءٍ وعناية، كما لو أنها تهيئ جلسة  
في حكاية.

حملته على صينية، واقتربت من الغرفة.

كان يجلس هناك، صامتًا، يقلب جريدته، أو يتظاهر بذلك.

وضعت الصينية أمامه.

لم تقل شيئًا. فقط نظرت إليه، ثم جلست بهدوء، متربعة كأنها  
تخشى أن تنزعج الأرض من وزنها.

انتظر لحظة، ثم قال دون أن يرفع عينيه:

"ما هذا؟"

أجابت، بصوتها الخافت الدافئ:

"كعك... صنعته لك. أردت فقط... أن نشرب الشاي معًا."

أخذ الكوب. لم يشكر. لكنه لم يرفض.

مرت دقائق صامتة. ثم تمت، بنبرة صغيرة:

"هل ... تحب عمالك؟"

لم يتوقع السؤال.

نظر إليها، لم يجب فورًا.

قال:

"عملي؟ نعم... أحيانًا."

هزّت رأسها ببطء.

"هل تخرج كثيرًا؟ إلى المدينة؟ هل هي بعيدة؟"

"ليست بعيدة... لكنها مزدحمة."

"هل هناك... مكتبات؟"

نظر إليها هذه المرة بتمعن.

"مكتبات؟"

ابتسمت خجلاً:

"كنت أحب الكتب المصوّرة. تلك التي فيها قصص عن  
أميرات يهربن من القلاع..."

صمت.

كان يشرب الشاي، وهي تتحدث كأنها تهمس لنفسها.

قالت فجأة:

"هل صحيح... أن النساء يجب أن يُنجبن بسرعة؟"

رفع حاجبه، سأل بنبرة جافة:

"من قال هذا؟"

"النساء اللواتي كنّ هنا... قلن إن الوقت مناسب... لكنني لا أفهم كيف... كيف يعرف المرء أنه جاهز؟ أعني... ألا يحتاج الطفل إلى أم تعرف كيف تعتني به؟"

صمته أصبح أثقل.

نظرت إليه بعينيها الواسعتين، الصافيتين كأنهما لم تلوثا بعد.

قالت، وهي تلعق قليلاً من السكر من أطراف أصابعها:

"هل تظن... أنني سأكون أما جيدة؟"

لم يعرف ماذا يقول.

في تلك اللحظة، رأى بوضوح: هذه الفتاة ليست امرأة.  
هي مخلوق صغير، رقيق، نقي... تتكى على صور في ذهنها  
عن العالم، أكثر مما تفهم العالم نفسه.

ابتسمت له، بسذاجة.

"هل تريد كعكة أخرى؟"

أخذ واحدة. وضعها في فمه. لكنها لم تعد بطعم.

كل شيء فيها يصرخ: "أنا ما زلتُ صغيرة..."

لكنها تحاول، تحاول بكل الطرق أن تكون "زوجة"، أن تصنع شيئاً جميلاً في الخراب.

أن تحب، رغم أنها لم تعرف يوماً ما يعنيه الحب.

لم يجيها. لم يوبّخها. لم يلمسها.

لكنه، حين دخل غرفته تلك الليلة،

جلس طويلاً في الظلام،

وفكر:

ماذا فعلنا؟

...

"هل تريد كعكة أخرى؟"

قالتها وهي تميل قليلاً نحوه، عيناها تتعلّقان بابتسامة لم تأتِ.

نظر إليها طويلاً. ثم تناول قطعة ثانية، وضعها على طبقه دون أن يأكلها. قال بنبرة أخف من عادته:

"أنتِ من زيّتها؟"

أومأت بخجل.

"علّمتني أمي... لكنها لم تكن تصنعها بهذا الشكل."

قال وهو يتفحص الخطوط السكرية البيضاء التي رسمتها على الوجه:

"جميلة... ومضحكة قليلاً."

ضحكت.

ضحكة صغيرة، مكتومة، كأنها خرجت من فمها دون أن  
تستأذن قلبها.

قالت، وقد بدا في صوتها فرحٌ نادر:

"كنت أتخيل أن تكون الكعكة مثل تاج... لكنها أصبحت مثل  
زهرة معوجة."

ابتسم، ورفع حاجبه:

"وهل تحبين الزهور؟"

توردت وجنتاها:

"كثيرًا... لكنني لا أعرف أسماءها، فقط أحب أن أرسماها.  
أتخيل أن كل زهرة لها صوت... شخصية."

ساد الصمت، لكنه لم يكن ثقيلاً.

نظر إليها، لأول مرة وكأنها ليست زوجته... بل كائن غريب،  
طفل ضائع، عالق في بيتٍ لم يُبنى له.

قال بهدوء:

"سأعلمك."

رفعت رأسها.

"تعلميني الرسم... وأعلمك أسماء الزهور."

فتحت عينيها ببطء، كأنها تخاف أن تنكسر اللحظة.

ثم همست:

"حقاً؟"

أجاب بنبرة لم يسمعها من نفسه منذ زمن:

"حقاً."

ثم سألت، بتلك الطريقة التي يعرف فيها المرء أنه يتحدث مع أحد لا يعرف العالم جيداً:

"ما هو الشيء الذي تُحبيبه أكثر شيء؟"

صمتت.

ثم أجابت، ببطء:

"أن أتحدث... دون أن يُقاطعني أحد."

هز رأسه.

"تحدثي، إذن."

استندت على الأريكة، رفعت ساقيها تحت جسدها كما تفعل

طفلة تُخبر سرّها لصديق ذميمة.

بدأت بالكلام عن أشياء بسيطة:

النافذة في غرفتها، شكل ضوء الشمس حين يدخل، قطة كانت

تراها من الشرفة في بيت أمها، والسماء التي تغيّر لونها

بسرعة في القرية.

وهو... أنصت.

أنصت لا كزوج، بل كإنسان يتأمل طهارة غير قابلة للتكرار.

وحين سألته:

"هل كنت تحب أمك؟"

توقف لثوانٍ.

أجاب بصوت هادئ:

"أحببتها كثيرًا... لكنها كانت امرأة صعبة. مثل أمك، أظن."

فقالت، بعد لحظة صمت:

"لكنني... لست مثلها."

قال:

"لا... أنتِ مختلفة جدًا."

رقت عينها بدهشة.

كأنها سمعت لأول مرة في حياتها جملة تقول إنها "مختلفة"  
للأفضل، لا الأسوأ.

في تلك اللحظة، كانت ستيلا لا تزال صغيرة جدًا.  
لكنها كانت تصنع، لأول مرة، حوارًا حقيقيًا.

وفي عيني الرجل... بدأت تظهر شرارة ارتباك.

فهو، رغم كل شيء... لم يتوقع أن يذوب في جلسة شاي كهذه، ولا أن يرى زوجته، "البريئة"، تصبح مرآيا تكشف له كم كان وحده طوال عمره.

كان ذلك الصباح دافئاً على غير عادة الربيع في تلك البلدة، والضوء المتسلل من نافذة المطبخ بدا وكأنه يغسل المكان من كل الذكريات القديمة.

ستيلا، بفستانها الرمادي البسيط، كانت تحرك ملعقة خشبية داخل إبريق الحليب، في عينيها شيء من الحياة. لم تكن تبتسم، لكنها لم تكن حزينة كذلك. شيء جديد كان يتفتح ببطء، كزهرة تخشى الضوء لكنها لا تقاومه.

نيكولاس جلس على الكرسي المقابل وهو يراقبها، عيناه لا تطرفان. شرب شايه بصمت، ثم قال بصوت هادئ: "أتعلمين، ستارة المطبخ هذه... جميلة."

نظرت إليه بخجل، فستانها يرتجف على جسدها النحيل.  
"خبيطتها البارحة، من قماشٍ قديم."

هزّ رأسه موافقًا، ثم أضاف: "أظن أن البيت يبدو مختلفًا منذ  
بدأتي بلمساتك الصغيرة."

لم تُعلّق. كانت تلك الجملة كافية لتترك أثرًا طويلًا في قلبها،  
حتى بعد أن خرج نيكولاس إلى عمله، ظلّت واقفة تنظر إلى  
الباب لعدة دقائق، وكأنها تنتظر أن يعود ويكررها.

ذلك اليوم، خرجت إلى السوق القريب، بغطاء رأسها المزهر،  
تمسك سلتها وتراقب وجوه الناس. جارتها "ماريّا"، العجوز  
التي تعيش على الزاوية، همست للمرأة الأخرى: "هل رأيت؟"  
نيكولاس ابتسم لها قبل أن يغادر... للمرة الأولى منذ شهر.

وفي الداخل، ستيلا ترتّب المائدة وكأنها ترتّب قلبها. تضع  
زهرة صغيرة في كوب الماء، وتضع أمام نيكولاس رغيفًا  
مدهونًا بالزبدة على شكل قلب صغير. لا تقول شيئًا، لكنها  
تنظر إليه طويلًا.

وفي المساء، حين دخل البيت مُرهقًا، وجد الضوء خافتًا،  
والستائر قد شُدَّتْ بلُطف، وعلى الطاولة كتابٌ مفتوح ودفترها،  
مليء برسومات لبيوت صغيرة بنوافذ دافئة.

قال وهو يضع معطفه: "هل ترسمين هذه لتبنيها يومًا؟"

قالت دون أن تنظر إليه: "ربما... أو لأتخيل أنني أعيش فيها."

اقترب منها، مدّ يده ليقبّل إحدى الصفحات، ثم قال: "أعتقد أننا  
يمكن أن نرسم بيتًا سويًا، أنتِ على الورق، وأنا في الواقع."

ابتسمت.

في تلك اللحظة، لم تكن تعرف ما إن كانت تحبه، لكنها أدركت  
يقينًا أنها بدأت تحب حياتها، شيئًا فشيئًا.

وفي الليل، كتبت في دفترها: "ربما يكون للحياة وجوه كثيرة،  
وبعضها... أرق من الحلم."

...

كان المطر يهمس بخفة على سقف المنزل، وصوت احتكاك  
الرياح بالأبواب الخشبية يُشبه همسات دافئة في ليلة طويلة.  
ستيلا، جالسة على الأرض، تفرش قطعة قماش حريرية على  
الطاولة الصغيرة، ترتب فوقها أكواب الشاي الملونة، وتضحك  
بصوت خافت حين يسقط البخار قطراته على خديها.

نيكولاس كان يجلس أمام المدفأة، يقرأ بصوت منخفض، ثم  
يرفع عينيه بين الحين والآخر إليها، يراقب حركاتها الصغيرة  
بدقة مذهشة، كما لو أن من أمامه لوحة تنبض بالحياة، لوحة لم  
يتخيل أبدًا أن يراها في منزله الرمادي.

"ما الذي يضحك؟" سألتها وهو يضع الكتاب جانبًا.

"هذا الكوب!" رفعت أحد الأكواب بتنهيذة خجولة، "أعتقد أنني  
بالغت في رسم العصافير عليه."

اقترب منها، أخذ الكوب من يدها، قلبه ببطء وقال بابتسامة  
ناعمة: "بل هو جميل، يبدو وكأنه يحمل ضحكك فيه."

صمتت... لم تكن تعرف كيف يُرد على جملة مثل هذه. قلبها  
خفق، كأن أحدهم لمس شيئًا هشًا جدًا فيه.

ثم، دون أن تشعر، كانت تقول: "أتدري... أنا لا أعرف كيف  
يكون الحب، لكنني أعتقد أنني أتعلمه منك دون أن تدري."

ابتسم نيكولاس، ابتسامة ليست باردة كما اعتادت، ليست غريبة  
أو ساخرة، بل دافئة... تشبه يديه حين يساعدها في حمل  
الأطباق دون أن يتكلم.

مرّت دقائق دون حديث. كان الصمت بينهما هذه المرة مريحًا،  
كأنهما اتفقا أخيرًا على لغة جديدة، لا تحتاج إلى كثير من  
الكلمات.

وعندما نهض نيكولاس ليُحضر لها بطانية إضافية، سمعها  
تهمس، بصوتٍ بالكاد سمعه:

"نيكولاس... شكراً لأنك لم تقتل الضوء في قلبي."

لم يردّ... لكنه حين عاد، كان يحمل بين يديه أيضاً كوباً  
صغيراً من الشوكولا الساخنة، وقد رسم على سطحه قلباً  
..بخجولاً.

لم يكن أحد يطرق ذلك الباب، منذ أن دخلت ستيليا إليه كعروس  
خاملة الروح، ولم يكن قلبها ينتفض كلما دوى صوت الطرق  
كما حدث ذلك اليوم.

حين فتحت، وقفت والدتها عند العتبة، تقف كما لو كانت واقفة  
على أطلال مملكةٍ قديمةٍ هربت منها الأميرة دون إذن. لم تقل  
شيئاً في البداية. كانت عيناها تجولان بتفحص غريب؛ إلى  
النوافذ النظيفة، الأرض اللامعة، المزهرية الصغيرة فوق  
الطاولة، ثم إلى وجه ستيليا... ذلك الوجه الذي بدا لها أكثر

امتلاءً، خدود وردية، عيان لامعتان، فستان سماوي مشرق،  
وجديلة مرتبة على الكتف.

بدت كفتاة تعيش في رواية، لا كابنتها التي أخرجتها من البيت  
إلى هذا المصير.

"أمي؟" قالتها ستبلا بصوتٍ مرتجف.

الأم لم تُجب. لكنها تجاوزتها، دخلت بخطى بطيئة، أناملها  
تمسح الغبار غير الموجود على حافة الكرسي، ثم جلست.

"هل طعمتَ جيدًا هنا؟" سألتها ببرود.

"أطبخ كل يوم... نيكولاس يُحب الطواجن بالخضار."

رقت عينا المرأة، كانت تتوقع الوجد، الشحوب، الانهيار... لا  
هذه النعومة.

ثم، ركضت أنجيلا من خلف الباب، صرخت: "ستيلا!!!"  
وألقت بجسدها النحيل على أختها كما لو أن الحياة بأكملها  
كانت تنتظر هذا العناق.

ستيلا انكمشت على الأرض، ضحكت وهي تدفن وجهها في  
شعر أختها، أنجيلا تكبر، أطول قليلاً، أكثر صخباً، ولكن  
صوتها... ما زال يحمل تلك النعمة العذبة.

جلس الثلاثة على المائدة. الأم تأكل بخجل، تراقب نيكولاس  
الذي يقدم الطعام دون كلمة زائدة، والذي حين يغادر الغرفة  
بيتسم وهو يمر بجانب ستيلا، ابتسامة هادئة، لا تستأذن، لكنها  
نقول كل شيء.

كانت تلك الساعات قصيرة، لكنها كانت كافية لأن تلون ذاكرة  
أنجيلا بضحكة جديدة، ولأن تُريني الأم أن ابنتها ليست ضعيفة  
كما كانت تظن، بل فقط... لم تُزهر حين كانت تحت ظلها.

وفي المساء، عندما حملت الأم أنجيلا لتغادر، وقفت عند الباب  
والتفتت إلى ستيلا، وقالت بصوتٍ بدا كمن يشرب ماءً مالِحًا:

"أنتِ صرتِ امرأة يا ستيلا."

ردّت ستيلا بابتسامة هادئة، ثم أغلقت الباب بلطف، كمن يغلق  
فصلًا كاملًا من حياته.



كانت رائحة الخبز في الفرن تعبق في المنزل الصغير،  
وصوت العصافير بالخارج ينسج لحناً طفوليًا يشبه قلبها ذلك  
اليوم. ستيلا جلست على المقعد الخشبي، تضع يدها فوق بطنها  
في هدوء غير معتاد، وعيناها تنتقلان بين الضوء المتسلل من  
النافذة وبين قلبها الذي يخفق بوتيرة جديدة.

كانت وحدها في البيت، نيكولاس خرج منذ الصباح، وهدوء  
المكان بدا لها وكأنه مهّد لهذه اللحظة الاستثنائية.

كانت تمسك ورقة مبلّلة من الطبيب، تُحدّق في الكلمة التي لا تصدّق أنها تخصّها: حامل.

بكت.

لكنها لم تبكِ لأنها خائفة، بل لأنها دهشت. لأن بداخلها شيء صغير يتشكّل، يتنفس، يستعدّ للحياة. شيء منها... وربما منه.

وضعت يدها على بطنها الصغير وقالت:

"هل تسمعي؟ أنا ستيل... أمك."

ضحكت، ثم أخفت وجهها في كفيها.

ضحكت كأنها سمعت خبرًا من السماء.

ضحكت كطفلةٍ تعانق دميّتها الأولى.

ركضت نحو غرفة نيكولاس، فتحت الدرج حيث يحتفظ  
بأوراقه، بحثت عن قلمه، كتبت على قصاصة صغيرة:  
أنا... أم.

تركتها على وسادته، كما لو أنها رسالة حب سرّية.

لكنّ المساء جاء على غير ما كانت تنتظر.

دخل نيكولاس المنزل بوجهٍ ليس له ملامح. بارد، مائل  
للصمت، لكنه ليس ذلك الصمت اللطيف الذي تعودته.

قال دون أن يسلم:

"هل صحيح؟"

تقدّمت نحوه بخطوات خفيفة، قلبها ينبض كشجرة في الريح،  
وابتسامة نصفها خوف ونصفها دهشة:

"نعم... أنا... نيكولاس، أنا حامل."

لكنه لم يتسم.

اقترب منها بخطوات ثقيلة، ثم رفع يده، وشفعها على وجهها  
صفعة أربكت الكون في عينيها.

سقطت أرضًا، لم تصرخ، لم تبكي، فقط وضعت يدها على  
خدّها، تلمّس الألم كمن يحاول التأكد إن كان هذا الجسد ما زال  
ملكًا له.

"ابني؟! من أبوه؟"

قالها بصوتٍ مرتجفٍ مملوءٍ بالغضب والخذلان.

هزّت رأسها، لم تفهم...

"أنت، نيكولاس، من غيرك؟ أنا لا أعرف سواك."

صرخ بقسوته كلها:

"أختاي رأيناك تتحدثين مع رجل غريب حين زرت السوق،  
ويقلن إنك كنت تبتمين!"

ارتجف فمها، أرادت أن تشرح، أن تصرخ، أن تقول إنها فقط  
سألت البائع عن سعر الورد... لكنها عجزت. الكلمات تهرب  
منها كما تهرب الحياة من الجرح.

"كاذبة." قالها ببطء.

ثم غادر الغرفة كمن يهرب من لعنة.

لم تبك بعد، ظلت جالسة، تلمس خدّها، تتحسس قلبها، تتحسس  
جنينها...

"أنت لي، أنا أعرف، أنت مئّي، ولست من كذب العالم."

لم تمرّ ساعة حتى فُتح الباب مجدداً، وهذه المرّة... دخلت والدتها.

نظرت إليها كمن يرى جريمة أمامه.  
صرخت: "ما هذه الفضيحة؟ أنتِ..؟!!"

"أمي لا، لا... هو ابني، اسأليه، أنا لم..."  
لكنّ الأم لم تسمع.

اقتربت منها، نظرت إليها باحتقار، وقالت:  
"أنتِ من جلبتِ العار... وها أنتِ تحملين سفاخاً سيخرب  
منزلكِ!، وأنا... اه ماذا أقول فقط.. انا ندمتُ يوم أنجبتكِ."

انكمشت ستيلاً في الزاوية، مثل قطعةٍ مبللةٍ بالطين.

صرخت بصوت خافت:

"ساعديني... أنا لا أعرف كيف أدافع عن نفسي، لكنني لم أفعل شيئاً، أقسم... فقط أمنت."

أنجيلا، التي جاءت معها، كانت تقف عند الباب، تبكي بصمت.

نظرت إلى أختها ثم ركضت نحوها، احتضنتها، قالت بصوت مرتجف:

"أنا أصدقك، ستيتلا، أنا أصدقك..."

كان الليل طويلاً.

والبيت لم يعد هو ذاته.

وستيتلا؟

سقطت في نومٍ غريب...

نصفه حزن، ونصفه، أمل بأن يعود نيكولاس ذات مساء  
ويقول:

"أنا آسف، سامحيني."

لكن حتى ذلك الحلم، بات موحشًا جدًا.

....

كانت الشمس تتسلل من بين غيوم رمادية، كأنها لا تجرؤ على  
إشراق كامل، وكأنها تشهد على ما يُرتكب في هذا البيت دون  
أن تملك القدرة على التراجع.

كانت ستيلا تجلس على الكرسي الصغير القريب من النافذة،  
وجهها متورم، شعرها مبعثر، عيناها مجوفتان كمن غاص  
فيهما كل الظلم الذي عرفه العالم.

لم يكن الصمت راحة... بل كان هشيماً يسبق العاصفة.

وفي الغرفة المجاورة، كان صوت نيكولاس يرتفع.

قالت ماري بصوتٍ متحشرج، لكن نبرته مليئة بالسّم: "لقد أخطأتُ حين أرسلتها إليك. الفتاة تجلب العار أينما حلت. لا فائدة منها... أخرجها من بيتك وارجعها إليّ إن شئت، أو طلقها وانته."

كان نيكولاس يقف قبالتها، يداه مقبوضتان، كتفاه مرفوعتان، قلبه يغلي.

"أطلقها؟ لتخرج طاهرة من بيتي بعد أن دنّسته؟"

ضحك بسخريةٍ خانقة، ثم تابع:

"بل ستبقى... حتى أطفئ في قلبها كل ما تبقى من وهمها الطفولي... سأربيها أنا."

"تربيها؟" قالت ماري، ناظرة إليه كمن يُسرّ بما تسمع، "افعل بها ما تشاء... أنا انتهيت منها منذ زمن."

دخلت أختا نيكولاس.

كأنهما جاءتا لثُكملا المسرحية بسكاكينهن المصقولة.

قالت الكبرى، وهي تجلس على طرف الأريكة:

"قابلتها في السوق، كانت تضحك مع الرجل وكأنها عاشقة...  
تخيّل؟ طفلة تتغنج في العلن!"

ضحكت الأخرى، وأضافت:

"من أين جاء هذا الحمل؟ من فمها العطر؟ أم من عينيها  
البريئتين؟ لا أحد يعرف ما تخبئه الصغيرات أمثالها..."

كانت ستيليا قد سمعت كل شيء.

دخلت الغرفة كأن قدميها لا تحملانها.

لم تبك، بل وقفت في المنتصف، نظرت إلى الجميع، ثم إلى  
نيكولاس تحديداً.

قالت بصوتٍ متقطع، مُرّ، يشبه صوت من يحاول التنفس تحت الماء:

"أنا... لم أفعل شيئاً... أقسم... أقسم أنك أول وآخر رجل لمستته يدي... لم أبتسم إلا لك... لم أنظر إلى أحد... كنت أشتري وردًا... فقط وردًا يا نيكولاس..."

لكن وجه نيكولاس كان جدارًا من حجر.

قال ببرود قاتل: "الورود؟ لا تنبت في المستنقعات."

اهتزت شفتاها. ثم شهقت.

"أنا بريئة..."

همستها وكأنها تحاول إقناع نفسها، لا البشر.

لكن ضحكة أخت نيكولاس طغت على صدى صوتها.

"بريئة! وهل البريئة تجرّ رجلاً مثل أبيها إلى الجنون؟"

ثم اقترب نيكولاس، مَدَّ يده، أمسكها من ذراعها كأنها شيء،  
كأنها كيس من الخطايا.

دفعها إلى الأرض، ثم قال:

"هنا... ستتعلمين كيف تصبحين امرأة، امرأة لا تكذب، ولا  
تتدلل."

كانت ماري تراقب.

صامتة.

بلا رحمة.

وفي الداخل، حيث اختبأت أنجيلا خلف الستار، كانت تسمع كل شيء.

كل صرخة، كل تهمة، كل انكسار.

وفي ذلك المساء...

كان صوت الضرب أعلى من صوت الريح.

وستيلاً؟

نطقت بكلماتها الأخيرة لذلك اليوم، وهي تزحف نحو الحائط القديم، حيث كانت تكتب لأنجيلا:

"أنا بريئة... لكن البراءة لا تحمينا."

....

كانت الأرض باردة.

جلدها متورم.

أنفها ينزف ببطء.

لكن لا دموع.

لا شهقة.

لا مقاومة.

كل شيء فيها انطفأ، كما تُطفأ شمعة في قبو رطب.

كل ما تبقى منها... هو صوت داخلي خافت، يهمس:

"لم أعد أعرفني... لم أعد أعرفني..."

في الليلة التالية، لم تتم.

جلست في الزاوية، تعانق ركبتيها، ترتجف من الداخل لا من

البرد، بل من الوحدة.

الجدار أمامها لم يعد دفتر رسائلها. صار شاهد قبر.

حين أشرقت الشمس، لم تبتهج كما كانت تفعل من قبل.

بدت الشمس كعدو متغطرس، يفضح جراحها للعالم.

دخل نيكولاس الغرفة، لم ينظر إليها.  
خلع معطفه، قال بصوت لا يحمل أي شعور:

"والدتك سترجع اليوم. لا تفتحي فمك بكلمة."

أومات ستيلا برأسها.

كأنها خادمة.

كأنها خيال امرأة... وليس الفتاة التي كانت تضحك في فستان  
سماوي.

لم تعد تطرح الأسئلة.

لم تعد تهتم بما يقوله الآخرون عنها.

صارت تؤمن أن العالم قد وُلد مائلاً.

أن الخير حكاية للصغار.

أن الحب وهمُّ نُضحك به أنفسنا قبل أن نُركل نحو الحقيقة.

حين جاءت ماري، دخلت وكأنها تملك البيت.  
نظرت إلى ستيلا، فتأملت وجهها المتورم، وعيناها النافرتان  
من البكاء.  
قالت ببرود:

"جميلة... لكن الجمال وحده لا يكفي."

ثم جلست على الأريكة، وقالت دون أن تنظر إليها:

"أردتُ لك بيتًا... رجلاً... سقفًا."

لكن يبدو أنك لا تعرفين النعمة حين تأتيك."

اقتربت منها، أمسكتها من ذقنها، رفعتها لتُجبرها على النظر  
إلى عينيها، ثم همست:

"لو كنتِ ابنتي بحق... لما تسببتِ في كل هذا العار."

تركتهَا وسارت بخطى ثابتة، خرجت من الباب، وكأنها أدت  
واجبًا لا أكثر.

وعادت ستيلا تجلس وحدها.

وسط شتات.

وسط شائعات لم تُدافع عنها.

وسط بيت لا تحبه.

ورجلٍ لا يرحمها.

وأمّ... لم تكن يومًا أمًا.

وفي تلك الليلة...

وضعت يدها على بطنها الفارغ، وبكت، لا على الجنين الذي  
أسقط، بل على "الروح" التي كانت تؤمن يوماً بأنّ هذا العالم  
قد يُصلحها.

وكتبت على الجدار، لا بأناملها، بل بظلال صوتها:  
"يا الله... إن كنت تراني، فأرني نفسي كما كانت قبل أن  
تتكسر."

...

كان المشهد أبيض... كل شيء. الجدران. السقف. الأضواء.  
حتى الأمل.

حين فتحت ستيلا عينيها في المستشفى، شعرت بثقلٍ داخليّ لم  
تفهمه، كأن قلبها سقط في حفرة لا قرار لها.

نظرت إلى يديها.

لم يكن هناك شيء، لا طفلة صغيرة تمسك أصابعها، لا صوت  
يُناديها "أمي".

ثم رأته ... الطبيب .

وجهه لا يحمل أي عاطفة، فقط ملامح احترافية مغلقة بالحدز .

دخل نيكولاس الغرفة، أول مرّة يظهر فيها بلا صراخ، بلا  
عينين حادتين .

مجرد رجل، صامت، مائل الرأس .

اقترب الطبيب منه وقال :

"أجريت فحص الأبوة، كان ذلك ضمن الإجراءات الروتينية  
بسبب النزيف المفاجئ..."

تجمّد نيكولاس .

"الجنين كان لك، سيدي ."

سقطت الكلمات من فمه كرصاصٍ على صدر فارغ.

نيكولاس لم ينظر إلى ستيل... بل إلى الأرض.  
كأن الذنب أثقل من أن يُقال.

جلس إلى جوارها، وهمس:  
"أنا... لم أكن أعلم... كنت غاضبًا، خائفًا..."

لم تجبه.  
كان البكاء في حلقها كصخرٍ جاف.  
كانت تلك اللحظة أكبر من أن تُغفر.

قال: "هل يمكن أن نبدأ من جديد؟"

لم تردّ.  
فقط أغلقت عينيها، كأنها تغلق بابًا، كأنها تدفن كل شيء.

---

بعد أربع سنوات...

أصبحت ستيلًا في التاسعة عشر.

هادئة.

بيضاء أكثر من اللازم.

صوتها ناعم لكنه حذر، كمن اعتاد الهمس كي لا يُوقظ الألم.

تغيّرت كثيرًا.

وجهها ازداد جمالًا، لا بالمساحيق بل بالصبر، بالعمر الذي

كُتب في عينيها.

تُشبه زهرة نمت بين الصخور... تتحني كثيرًا، لكنها لا  
تنكسر.

أنجيلا، تلك الصغيرة، أصبحت فتاة في الخامسة عشر.  
ذات ابتسامة خجولة، وعيون تعرف الكثير رغم صغرها.

كانت تهرب من بيت الأم — التي ما زالت تكرر نفس الجمل  
القاسية — إلى بيت أختها ستيل، حيث يُشبه كل شيء قلبًا  
مفتوحًا.

في يومٍ بارد، جاءت أنجيلا تركض، بشعرٍ مبعثر وعيون  
دامعة: "ستيلا... هل أستطيع أن أبقى الليلة هنا؟ لا أريد أن  
أعود."

فتحت ستيل ذراعيها، ضمّتها، همست: "ابقِ هنا... أنتِ  
منزلي."

جلستنا في المطبخ.

أنجيلا تُساعدنا في ترتيب الأطباق، تغنيان معًا، تضحكان.

ثم فجأة، قالت أنجيلا: "أنا أحبك."

توقفت ستيلا عن الحركة.

نظرت إليها، بعينين تمتلئان بدموعٍ ناعمة.

"قولكِ هذا ... يجعل قلبي يرقص."

كانت ستيلا لا تزال تظن أن لا أحد يحبها.

لكنها الآن عرفت شيئًا واحدًا...

أن حبًا صغيرًا، صادقًا، قد يُرمم ما عجز عنه الزمن.

وفي داخلها ... رغم الجروح القديمة...

كانت تحيا.

\*\*\*\*

كان المطر ينزل خفيًا، كأن السماء تمسح وجه العالم بيدٍ  
حانية.

وقفت ستيلا عند النافذة، تحمل كوبًا من الشاي بالعسل، تنظر  
إلى الأشجار التي تهتز مع الريح كما يهتز قلبها حين تسمع  
صوته في الممر.

دخل نيكولاس بهدوء، أغلق الباب خلفه، وخلع معطفه المبلل.  
ابتسم، لكنها لم تلتفت.

لم تكن تتجاهله، بل كانت تتأمل اللحظة قبل أن تكسر لها  
الكلمات.

"ستيلا..."

قالها بصوت متردد.

"هل أزعجك حضوري المبكر؟"

أجابت، دون أن تلتفت:

"لا شيء في حضورك مزعج، نيكولاس... أحياناً فقط، أحتاج الصمت أكثر من الصوت."

اقترب منها. جلس على طرف الكنبة، وقال وهو ينظر إلى المدفأة:

"كنت أفكر... كم هو صعب أن تبني شيئاً... ثم تهدمه... ثم تحاول ترميمه من جديد. الجدران لا تعود كما كانت، حتى لو أعيد طلاؤها."

قالت بهدوء:

"لكن الروح يا نيكولاس... لا تحتاج إلى جدران، فقط إلى ظلّ."

ابتسم، كمن سمع حكمة من شيخ عجوز، لا من فتاة صغيرة.

ثم قال:

"أتعلمين؟ كنت دائماً أراكِ طفلة. حتى حين كنت أعضبك...  
كنت تهزين رأسك مثل أنجيلا.  
لكن الآن... أصبحت تُشبهين امرأة عاشت مئة عام، بنظرة  
واحدة تقول كل شيء."

أجابت، وهي تجلس إلى جواره:

"ربما عشتها فعلاً... لكن دون أن أبرح مكاني."

نظر إليها ملياً، ثم قال:

"ستيلاً... لا أطلب غفراناً. فقط أريد أن تعرفي... أنني لم أعد  
ذلك الرجل."

الشيب لم يأت عبثاً، والتجاعيد... تحمل أكثر من عمر.

ولم يعد في القلب متسع لمزيد من الخسارات."

صمتت قليلاً، ثم قالت:

"أنا لا أبحث عن رجل بلا ماضٍ، نيكولاس...  
أنا فقط... أبحث عن رجل لا يجعلني أعيش أخطاءه مرتين."

اقترب منها، دون أن يلمسها، فقط قال:  
"هل هناك أمل... أن نكمل ما بدأنا؟"

نظرت إليه أخيراً.  
عيناها لا تزالان ناعمتين، لكن فيهما حزم العارف.

قالت:

"لا أعلم، نيكولاس...  
لكن إن أردت أن تعرفني من جديد... فعليك أن تبدأ من  
الصفر.  
أن تراني كامرأة... لا كعذر لما فات، ولا كترقيع لما كُسر."

تنفّس بصوتٍ عميقٍ.

ثم قال:

"سأبدأ من جديد... كل يوم، حتى تصبحين وطنًا لا أخشى ضياعه."

ابتسمت بخفة.

قالت:

"إن كنت صادقًا... فلا تسألني عن الماضي. فقط... اصنع لي حاضرًا يستحق أن أتذكره."

في تلك الليلة...

لم تُقل كلمات كثيرة بعد.

لكن الصمت بينهما كان ناعمًا... كأن شيئًا في القلب بدأ يزهر من جديد، ببطء، بهدوء، وبكل الاحتياط.

،

في ظهيرة خضراء، كان الضوء يتسلل بخجل من بين أغصان الزيتون، يعانق أطراف المزرعة الصغيرة التي خرجوا إليها هربًا من صخب القرية وهمسها المضجر.

ستيلا، بثوبها القطني البسيط، كانت تضع سلة من الخبز الطازج وبعض الكعك على الغطاء المزهر الذي بسطوه تحت شجرة تفاح لم تنضج ثمارها بعد.

أنجيلا تركض خلف فراشة، تقفز وتضحك، وجهها يمتلئ بالحياة، كأن شيئاً لم يُلوث قلبها الصغير.

أما نيكولاس، فقد جلس قرب ستيلا، يتأمل يديها وهي تصب الشاي بعناية، ببطء لا يُشبه سوى يد أم تمشط شعر صغيرتها قبل النوم.

قال، وهو يراقب عينيها في صمت: "تبدين أجمل حين تصمتين."

ابتسمت، ثم همست: "لأنّ صوتي دائماً يفضح ما لا أودّ قوله."

ردّ، وهو يحركّ ملعقة في كوبه: "لك أن تقولي كل شيء...  
فأنا الآن أسمعك حقًا."

نظرت إليه، بعينين تشبهان الغيم قبل أن يهطل، وقالت بنبرة  
فيها ما يشبه البوح الذي طال انتظاره:

"رغم فارق العمر بيننا..."

رغم أنني احتفظت بك في قلبي طويلاً كوالدٍ فقدته مبكرًا...

رغم أنني كنت أبحث فيك عن ظلّ رجل يحمي لا رجل  
يملك...

أقسم لك، نيكولاس...

أنني اليوم أحبك كرجلٍ كاملٍ، لا كبديلٍ، لا كمهربٍ، لا  
كتعويضٍ."

وضعت يدها على صدرها، ثم أردفت بصوتٍ خافت:

"أنت الرجل الذي أختبئ خلفه من عواصف الناس وألسنتهم."

أنت الذي جعلت خوفي يهدأ، ونبضي يرتب نفسه من جديد."

ثم قالت، وهي تمسك بكفه: "نيكولاس، يشهد الله...  
أنني منحتك قلبي مرتين، مرة حين أخذته مني دون أن  
يدري..."

ومرة حين أعطيته لك بكل وعي.  
فلا تخذلني."

لم يرد بكلمة، بل وضع جبينه على ظهر يدها، كمن يحتمي بها  
هو الآخر.

صمت طويل، لكن لم يكن مؤلماً هذه المرة.  
كان صمناً دافئاً، يُغني عن ألف عبارة.

وفي تلك الأثناء، عادت أنجيلا، تركض نحوهما، تحتضن  
ستيلا من الخلف وتقول: "هل سنعود غداً للمزرعة؟ أحب هذا  
المكان، إنه يُشبهك يا ستيلا... ناعم وخفيف ومليء بالحلوى!"

ضحكت ستيللا، وغمزت لنيكولاس قائلة: "أرأيت؟ أخيرًا أصبح  
لي وطنٌ في قلب أحدهم."

ردّ، وهو ينظر إليهما: "وأنا... أخيرًا أصبح لي بيتٌ فيه  
امرأتان... كلتا هما تعلّمانِي الحب بطريقتهما."

ذلك اليوم، لم يحمل شيئًا استثنائيًا...  
مجرد شاي دافئ، وسكينة...  
لكنه كان بداية فصل جديد، عنوانه:  
حين تُشفى الحياة من نفسها.

\*\*★★\*\*

حين أتت النتيجة، لم تصدّق أذنيها.

قال الطبيب، وهو ينظر إلى الورقة بتأنٍ، مبتسمًا كمن يحمل  
سرًّا يعرف أنه سيبسدها:

"مبارك لكما... ستُصبحان والدين"

ستيلاً منذ أن أخبرها الطبيب أنها حامل، تغيّر شيء عميق في قلبها الطيب. لم تكن تفهم تمامًا ما يعنيه أن يحمل جسدها حياةً أخرى، لكنها شعرت بشيء جديد... امتداد صغير منها ينمو بهدوء داخلها، كزهرة خجولة تفتّحت بين الأنقاض.

في البداية، خافت. لم تعرف ما الذي يجب أن تشعر به، فكل ما تعرفه عن الأمهات كان صورة مشوهة. بكت ليلتها الأولى، لا من حزن ولا من فرح... بل من الذهول. كانت تجلس على حافة السرير، تمسك طرف فستانها، وتحقق في الأرض كأنها تخشى أن تنهار.

نيكولاس لم يقل شيئاً. فقط جلس قريباً، وربت على ظهر يدها. حين رفعت نظرها إليه، ابتسم. ابتسامة خفيفة، لكنها كانت كافية لتطمئن روحها المرتجفة.

ومنذ ذلك اليوم، بدأ فصلهما الجديد.

تغيّرت ستيلا... وتغيّرت معه. صارت أكثر حساسية، أكثر  
تقلّبًا. كانت تضحك في الصباح وتبكي عند الظهر، تشتهي  
الفاصل ثم تمقته بعد لحظة، وتغضب من أي تعليق تافه. كانت  
تنهض من النوم غاضبة من حلم، وتعاتبه لأنه لم يكن فيه.

لكنه كان حاضرًا... كأنه تدرّب عمرًا على تقبل كل هذا. لم  
يسخر، لم يتذمر، لم يغضب. كان يتعامل مع مزاجها كأنه طفل  
مدلل، يغيّر له وسادته كلما اشتدّ بكاؤه. كان يحضر لها التفاح  
مقطعًا، يربط شعرها حين يتشابك، ويمسك يدها عند المشي  
وكانها ستقع من شدّة التعب.

ذات صباح، استيقظت وهي تبكي، ولم تعرف السبب. جلست  
على الأرض، تلف نفسها بالبطانية كطفلة. جاء وجلس قربها،  
دون كلام، فقط احتضنها بصمت. ثم همس: "هل أخبرك بسر؟"  
أنا خائف أيضًا. لكنك شجاعة بما يكفي لنا معًا."

ضحكت وسط دموعها، وقالت: "أنا خائفة من كل شيء...  
حتى من أن تحبني."

رد بابتسامة دافئة: "لكني أحبكِ فعلاً، حتى حين تصرخين على  
طبق السلطة."

وفي الشهور التالية، بدأ جسدها يتغير، وبطنها يكبر، وقلبها  
يكبر معه. كانت تشعر بطفلتها قبل أن تتحرك، كأن روحها  
تتحدث معها. وفي الشهر الخامس، حين أخبرهما الطبيب أن  
الجنين أنثى، نظرت إلى نيكولاس، وقالت بحماسة خجولة:  
"ستكون نسخة صغيرة مني، أليس كذلك؟"

أجابها: "أتمنى أن تأخذ منك كل شيء، حتى دموعكِ هذه...  
جميلة مثل عينيك."

وفي الشهور الأخيرة، كانت تمضي النهار بين النوم والبكاء  
والضحك، وكان يمضي يومه في محاولة أن يجعل كل ساعة  
منها أقل وطأة. كان يصنع لها الشوربة بنفسه، يُسمعها موسيقى

ناعمة، يحكي لها قصصًا عن طفولته، وكان أحيانًا ينزل على ركبته ويحدّث جنينها وكأنها تسمعه.

في ليلة ماطرة، حين شعرت ببركة قوية لأول مرة، صحت باسمه فرعًا. ركض إليها، وضعت يده على بطنها المرتجف، ثم... ضحكت باكية: "لقد تحركت... أول مرة."

ضمها، وقال: "إنها تتحرك لأنك تحبينها، هي تشعر بك."

للمرة الأولى منذ زمن... شعرت ستيلا أنها ليست فقط زوجة، ولا فقط ابنة، ولا فقط الناجية من بيت مظلم. شعرت أنها أم، وأنها... بخير.

في تلك الليلة، وهي تغفو قرب نيكولاس، همست: "أحبك... رغم كل شيء، رغم فارق العمر، رغم قلقي وخوفي وترددي... أحبك لأنك كنت أول بيت، لا يهدمني."

وغفت ... على قلب رجل، لم يكن كاملاً، لكنه ... أحبها كما هي، بدموعها، وخوفها، وطفلتها القادمة.

كانت الشهور الأخيرة من حمل ستيلاً أشبه بالمشي فوق خيط من الحنين، والقلق، والعزلة المُرهرة. كانت أيامها طويلة، لا تمضي كالسابق، بل تتراكم كغيم رماديّ ثقيل، لا تمطر، لكنها تخنق الهواء.

كانت تمشي ببطء، بحذرٍ مفرط، كأنها تحمل العالم في بطنها. يديها تتجهان لا إرادياً إلى الأسفل، تمسكان البطن بحنان مشوش، كأنها تحاول احتضان الصغيرة دون لمسها فعلاً. شعرت لأول مرة أن جسدها لم يعد ملكها، أنه صار وطنًا لروح أخرى، وحياتها تدور في فلك تلك الركلات الصغيرة، وتلك التقلبات التي لا تُفهم.

كلّ شيء صار حسّاسًا، الهواء، الضوء، الكلمات العابرة، وحتى صمت نيكولاس صار له طعم مختلف. لم تكن تبكي كثيرًا في الشهور الأخيرة، بل أصبحت أكثر هدوءًا، كأنها

أدركت أن البكاء لن يُغيّر شيئاً، وأن القوة لا تعني الصراخ بل الصمت.

كانت تقف أحياناً أمام المرأة وتحقق في جسدها، المتغير، المنتفخ، الثقيل. لا جمال أنثويّ فيه كما كانت تظن، لكنه الجمال الأصدق... جمال الخلق، والانتظار، والنجاة. كانت تلمس بطنها وتحكي للصغيرة أحلامها الصغيرة: "سأعلمك كيف لا تصمتين حين يُطلب منك الصمت... وسأسمّيك باسم لا ينساه أحد..."

كانت تتحدث مع جنينها كما لم تحدث أحداً من قبل. تحكي لها عن طفولتها، عن أنجيبا، عن الكتب التي لم تكملها، عن الأحذية التي لم تمتلكها، عن الضحكات التي كانت تُقمع، وعن الأمل... الأمل الذي ظل يتنفس رغم كل شيء.

وكان نيكولاس هناك. صامت في أغلب الأحيان، لكنه حاضر. يُمسك ظهرها حين تمشي، ويمنحها وسادة إضافية كل مساء، ويستيقظ في منتصف الليل ليرى إن كانت بحاجة لشيء.

يراقب عينيها المتعبتين، ويحاول أن يمنحها حبه دون أن  
يربكها.

وفي إحدى الليالي، جلست في الفراش، وقد أنهكتها التعب.  
نظرت إليه وهمست: "أشعر أنني أكبر من عمري بعشرين  
عامًا، وأصغر من الدنيا كلها..."

أجابها بعد صمت طويل: "وأنا أشعر أنني كنت تائهاً قبلك...  
وأنت، رغم هشاشتك، كنت دليلي."

ضحكت، ثم وضعت يده على بطنها: "هل تشعر بها؟ إنها  
تركل الآن... وكأنها تخبرك أنها تستمع."

في تلك الشهور الأخيرة، أدركت ستيلاً أن انتظار الولادة يشبه  
انتظار المعجزة... ليس لأن الألم سيزول بعدها، بل لأن الألم  
سيأخذ شكلاً جديدًا: أكثر حضورًا، وأقل وحدة.

كانت تشتاق لابنتها قبل أن تراها، تخاف منها كما تخاف الأم  
من فقدان قلبها، وتحبها حباً لم تتعلمه من أحد... فقط وُلد فيها،  
كما يولد الضوء في العتمة، دون تعليم، دون تخطيط.

وفي ليلٍ رماديٍّ، حين كان الشتاء يتهيأ لوداع موسمه، وضعت  
ستيلا يدها على بطنها، وأغمضت عينيها وقالت: "أنا  
مستعدة... إن كانت هذه الولادة ستكسرني، فلتفعل، سأنهض  
من بعدها أمًا."

ثم ابتسمت... ولم تكن تعلم أن المخاض أقرب مما ظنت.

كان الفجر ناعمًا، كما لو أن الطبيعة كلها قررت أن تخفف  
عنها، عن تلك الفتاة التي انتظرت طويلًا حتى يصبح الحلم  
جسدًا بين يديها. الهواء معطر بشيء لا يُسمى، لكنه يشبه  
الورد حين يُقطف لأول مرة. كانت ستائر البيت تتحرك برقة،  
والأشجار خارجًا ترقص لحناً صامتًا... يوم ميلادها أتى،  
كاميليا، هكذا قررت ستيلا أن تناديها، اسمٌ يشبهها، ناعم، شقيٍّ،  
ويُفتح مع الفجر.

استيقظت ستيليا والشعور بالامتلاء يثقل صدرها، لم تكن  
تعرف إن كانت مشاعر أم إشارات جسد على اقتراب  
المخاض، لكن قلبها قالها أولاً:

"لقد حان الوقت."

نيكولاس، الذي لم ينم إلا نصف الليل، قفز من فراشه بحدس  
العاشق، لم يطرح أسئلة، بل أمسك يدها وابتسم.  
ابتسامة رجل عرف أخيراً لماذا عانى ليصل إلى هذه اللحظة.

أنجيلا، بلامحها الهادئة، فتحت عينيها وهي تهمس:

"هل ستأتينا كاميليا اليوم؟"

"اليوم... سنصبح عائلة كاملة."

همست ستيليا وهي تمشي بخطوات بطيئة نحو الباب، كأنها  
تودّع بيتاً كانت فيه أنثى فقط... وستعود إليه كأم.

في السيارة، كانت الطريق مفروشة بالضوء، الطيور ترفرف  
بأجنحة متلهفة، والسماء ترتدي لونًا أزرقًا مشرقًا كفستان  
جديد. نيكولاس كان صامتًا، يضغط على يد ستيل بلطف،  
وكأنه يعتذر عن كل شيء مضى... وعن كل ألم ستمرّ به في  
اللحظة التالية.

في غرفة العمليات، حاصرها الصمت الدافئ. لم تشعر  
بالخوف، فقط توتر شبيه بتوتر من ينتظر لقاءً حبيبًا بعد غيابٍ  
عمر. وعندما وضعت رأسها على الوسادة، مرّ أمام عينيها كل  
شيء...

وجه أبيها حين حملها آخر مرة...  
صوت أمها حين قالت: "لا تبكي، البكاء ضعف."  
ضحكة أنجيلا الصغيرة وهي ترقص في المطبخ...  
غرفتها الباردة التي كانت تبكي فيها ليالٍ كاملة دون أن يسمعها  
أحد...

ووجه نيكولاس حين قال لها يومًا: "أعدك، سأكون ظلك."

ثم...

صرخة صغيرة.

كأن قلبها خرج من جسدها وقال: "ها أنا، لقد وصلت."

كانت كاميليا هناك. وردة حية، بكاءها يشبه عزفاً سماوياً. بكت ستيلاً، وارتجفت. وعندما وضعوها على صدرها، لم تستطع قول شيء... فقط ضمتها، وابتسمت.

"مرحباً بك، أنا أمك... كنت في انتظارك منذ سنوات لم أكن أعرف عددها."

نيكولاس، واقفاً بجانبها، مدّ يده ببطء، نظر إلى طفلة نظرة رجل لم يعرف الحب حتى رآها. لم يكن بحاجة لكلمات. عيونها كانت دمة واحدة لم تسقط، خفت فقط في محاجرها.

وفي الخارج... ماري، الأم التي ظن الجميع أنها لا تبكي،  
مسحت خدّها بخجل، وأدارت وجهها نحو الجدار.

قالت لأنجيلا بصوتٍ مرتجفٍ:

"تُشبهها وهي صغيرة... كان وجهها مستديرًا مثل القمر."

ثم همست:

"كاميليا... ربما كانت ستنقذني أنا أيضًا، لو جاءت في وقتٍ  
آخر."

وفي تلك الليلة...

لم تُضاء المصابيح في البيت، كان وجه كاميليا كافيًا ليضيء  
قلوبهم.

نامت ستيل، وكأنها أول مرة تنام في حضن الحياة،

ونيكولاس، أمسك بكفها وقال:

"لن أتركك أبدًا... لا أنت، ولا هي."

وفي الخارج...

كانت الأشجار تهتز كأنها تصفق.

وكان الليل، للمرة الأولى... بلا خوف.

...

البيت بدا مختلفًا.

حتى الجدران، تلك التي اعتادت أن تعكس صدى الحزن،  
كانت تُردد الآن همساتٍ خافتة... همسات حبّ جديد، صغير،  
تتفتح معها كل نبتة في الزاوية.

كاميليا...

طفلة لا تشبه أحدًا، تشبه ستيلًا فقط حين تبتسم وهي نائمة،  
تشبه الحلم الوحيد الذي تمسك بيده ولم يفلت منها بعد.  
عيناها، حين تفتحهما، كأن السماء قررت أن تصنع لونها خاصًا  
لهما وحدهما.

كل حركاتها كانت معجزة. كل تنهيدة، كل صرخة، كل حركة  
يد صغيرة تُعلن أنها هنا، وأن كل شيء تغيّر.

ستيلا...

ليست ستيلا التي عرفناها.

تحولت إلى أم، دون أن تدري كيف.

رضيعة بين ذراعيها، لكنها لم تشعر يوماً بالقوة مثلما شعرت  
وهي تُرضعها أول مرة.

كان الليل صعباً...

لكنّها لم تشتك.

كاميليا كانت تبكي كثيراً، تنهض كل ساعتين، وجسد ستيلا  
مُتعب، عيناها محمرتان، لكنها كلما حملتها، نطقت بنبرة  
واحدة:

"أنا هنا، لن أتركك، لا تبكي، العالم قاسٍ بما يكفي."

كانت تهمس لها كما لو أنها تحميها من شيء خفيّ، كما لو أن  
صوتها درع، وحنانها جدار.

نيكولاس...

الرجل الذي غزاه الشيب، كان أول الواصلين إلى كل دمعة  
تُذرف على خدّ الصغيرة.

لم يتأخر عن أي لحظة.

يُحضر لها زجاجة الماء حين تتعب من الرضاعة.

بيدّل لها الحفاضات وهو يُغني.

يجلس بجانب السرير يتأملها، يقول لستيلا بصوت خافت:

"كنت أظن أنني كبرتُ كثيرًا... لكنني الآن أشعر أنني أبدأ  
حياتي للتو."

أنجيلا...

تدخل الغرفة بخطوات متسرعة، تحمل الدمية القديمة التي

كانت ترافقها، وتضعها بجانب كاميليا، تهمس بخجل:

"لأجلها... سأعطيها كل ما كنتُ أحبه، كل ما لم يُعطني أحد

إياه."

وفي إحدى الليالي، بينما الجميع نائم، استيقظت ستيلا على

شهقة صغيرة من كاميليا.

حملتها، وضمتها لصدرها، وسارت بها عبر الممرات الهادئة.  
رأت وجهها في زجاج النافذة، لأول مرة منذ سنوات، بدا  
وجهها حيًا، دافئًا، جميلًا.

همست: "أتعلمين يا كاميليا... أنا التي أنجبتك، لكنك من  
أنجبتني من حزني، من وحدتي، من الطفلة التي كنتها."

كل يوم كانت تكبر، تبتسم أكثر، تضحك، تملأ البيت بصراخها  
الصغير، وحتى بكاءها صار موسيقى في هذا البيت الذي كان  
يومًا خافت الألوان.

وستيلا...

في كل مرة تلمس يد كاميليا، تقول لنفسها: "لقد كنتُ خائفة من  
أن أكون مثلها... مثل أمي.

لكنني اليوم، سأخلق بيتًا لا يشبه بيوت النساء القاسيات.  
سأكون أمًا، لا سجانًا.

وصوتي، لن يُرعب أحدًا، بل سيحرس طفولتها."

وفي المساء...

جلست ستيلاً على الأريكة، كاميليا نائمة على صدرها،  
ونيكولاس يقرأ بصوتٍ خافتٍ قصةً عن طائرٍ صغيرٍ.  
أنجيلا ترسم على الأرض قوس قزح ملون بالطباشير.

ولأول مرة...

شعرت ستيلاً أن السلام ليس مجرد كلمة.

السلام قد يكون طفلاً صغيراً نائماً بين ذراعيك، ورجلاً عجوز  
القلب يبتسم لأجلك، وأختاً تحلم لكِ قبل أن تحلم لنفسها.

نهاية الجزء الأول – السعادة التي تمشي على أطراف أصابعها

كان صباحًا من صباحات الخريف الهادئة، حين تستيقظ الأرض على رائحة التفاح والياسمين، وكان البيت دافئًا على غير عادته، كأن الربيع قرر أن يزورهم مبكرًا.

جلست ستيلًا أمام النافذة، تراقب كاميليا وهي ترتدي منزر الحضانة بلون السماء، بشعرها الأشقر الطويل، المنسدل كأموج ناعمة، وعينيها الزرقاوين كحبات اللؤلؤ في بحر صافٍ.

كانت تضحك وهي تُحاول ربط حذاءها بنفسها، ثم تلتفت قائلة:

"ماما، هل ستكونين هنا عندما أعود؟"

أجابت ستيلًا بابتسامة حنونة، وهي تمسح على بطنها المنتفخ بخفة:

"بالطبع، وسأخبي لك قطعة الكعك التي تحبينها."

في الركن المقابل، كان نيكولاس يُحضّر الفطور، بشعره الرماديّ المُبعثر، وملامحه التي صارت تشبه الخريف أكثر من أيّ وقت مضى، لكن ابتسامته كانت مزهرة، كما لو أنه شابٌّ في الثلاثين من عمره، يحب امرأته كما لم يُحب من قبل.

أنجيلا كانت تُمشط شعر كاميليا وتقول بضحكة مرحة:

"هذه الطفلة خرجت منكما مثالية... هي طفولتي التي لم أعشها."

كان المنزل مليئًا بالضحكات، بالنور، بصوت القدر حين يُصَفَّق للحياة.

ستيلا كانت تتحدّث لنيكولاس عن غرفة الطفل القادم، عن اللون الوردِي، عن الستائر، وعن الأحلام التي لم تكن تحلمها سابقًا، لكنه هو مَنْ علّمها كيف تحلم.

قبل أن تذهب كاميليا إلى الحضانة، احتضنت والدها بقوة، ثم  
قالت له: "بابا... سأرسمك اليوم!"

ضحك، ورفعها، وقبّل وجنتها، ثم همس في أذنها: "ارسميني  
وأنت تبتسمين، لأنني سأكون سعيدًا فقط إن كنت كذلك".

ثم... ذهب.

مرت الساعات بهدوء.

كانت ستيلًا تطهو وتغني، بيدٍ على بطنها، وبقلب يرقص.

حتى رن الهاتف.

صوت غريب.

كلمات مقتضبة.

وجدار من الصمت سقط دفعة واحدة في قلبها.

تجمدت.

أمسكت بكرسي الطاولة، وجلست عليه كأن الأرض لم تعد  
قادرة على حملها.

جاء الصوت مرة أخرى:

"سيدتي... نحن آسفون، لقد... لقد كان حادثًا."

شهقت.

لكنها لم تَبكِ.

نظرت إلى الباب، كأنها تنتظر أن يدخله نيكولاس ويقول إنه  
مجرد مزاح ثقيل.

لكن الباب ظلّ صامتاً... مثل الموت.

مرّت لحظة طويلة.

ثم سُمعت ضحكة كاميليا خارج المدرسة، كانت تلوّح لوالدتها وهي تقول:

"رسمتك يا أبي... أنت تبتسم. كما وعدتني!"

وأسدل الستار.

في صفحة النهاية، بخط رقيق، كُتب:

"نهاية الجزء الأول من (التعساء).."

أما الجزء الثاني، ففيه ستعرف ستيلا أن الحزن لا ينتهي، لكنه  
قد يتعلم كيف يعيش بهدوء.

ترقبوا حين تشتعل الذكريات بنار الفقد... تبدأ حكاية جديدة."

. النهاية .

\*\*\*★★★\*\*\*



